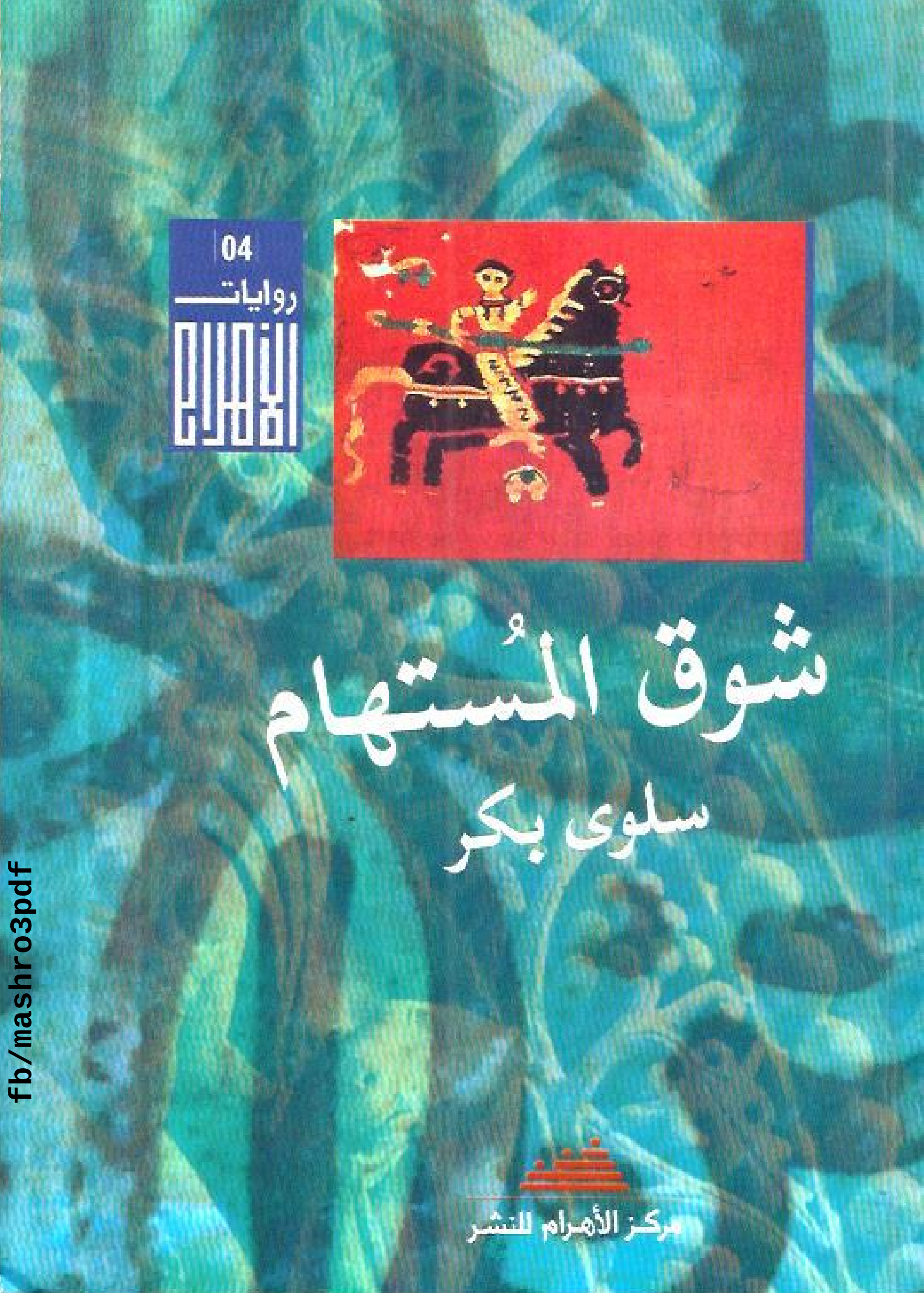

04
روايات
الأهرام
شوق المُستهام
سلوى بكر
مركز الأهرام للنشر
fb/mashro3pdf

شوق المستهام

إصدار مركز الأهرام للنشر

مركز الأهرام للنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ - ٢٧٧٠٥٠٦٣

منذ إنشائه فى ١٩٧٦ تحت اسم مركز الأهرام للترجمة العلمية وخلال مسيرته بعد أن أصبح مركز الأهرام للترجمة والنشر وصولا إلى وضعه الراهن، أصدر مئات العناوين التى حملت خلاصة عقول وأفكار وإبداع نخبة من المفكرين والكتّاب فى مصر والعالم العربى. ويرحب المركز باقتراحاتكم وأفكاركم.

رقم الإيداع ٩٠٧٣ / ٢٠١٥
ISBN 978- 977 - 320- 222- 4

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

الطبعة الأولى
أبريل ٢٠١٥

سلوى بكر

شوق المستهام

رواية



مركز الأهرام للنشر

٢٠١٥

إلى ذلك المجهول الذي ذهب إلى معبد أمحوتب في منف

وزويجا ... رغم كل شيء.

إشارات الشوق

وكأن قدري ومصيري قد تحدد قبل ميلادي، لأشب وأكبر، وأصير في النهاية، ووفقا لمشيئة الرب، تواقا للخير، باحثا عن كل معرفة، حتى ولو احترقت بنارها، وفنت روحي في سبيل طلبها.

فقد ولدت ذات فجر بعد مخاض أليم لأمي، التي كان بطنها قد طرح قبلي عشرة بطون، لم يعش منها غير أنثتين وأنا، فنذرني أبي الفلاح الذي هو أبو جرج بن مرقوريس للبيعة، لو أكرمه الرب وأحياني حتى أبلغ العاشرة، فلما اكتمل عقدي الأول عند منتصف شهر هاتور الذي هو يوم مولدي، ألبسني قميصا من الحرير والكتان المخلوط وسروالا معصفرا، ثم قام بزفي على أتان أبيض حتى باب بيعة بلدتنا التي هي قربيط الواقعة عند أسفل الأرض، ثم إنه سلمني لكاهنها مع هبة وتقدمه كانت جديا مسمنا، وجرة زيت كبيرة وأخرى من النبيذ الجيد المعتق، وهكذا ومنذ ذاك الوقت ارتبطت حياتي، ومنذ طفولتي الأولى بخدمة الرب حتى بلغت، وصرت - وفق مشيئته وإرادته، و في نهاية الأمر، راهبا مطببا

بدير مريوط، وهو دير عتيق يعود إلى أزمنة الكنيسة الأولى، وكان بمبتدئه يعيش فيه جماعة من الرهبان الشيوخ والشباب، يعذبون أجسادهم بالحديد والسلاسل، وكان رئيسهم يجلس متوجا بالنعمة الإلهية وله عجائب كثيرة.

كنت بعد سنوات من التحاقي بالدير، قد دخلت المطعمة لتوي وقت الظهيرة، حافي القدمين مثلما هو متبع في الدير منذ القدم، وما أن هممت بتناول طعامي بصمت - كما جرت العادة - والذي كان قليلا من الجبن الخشن والباقلاء وخبز الشعير، وكله مما يزرع ويعمل بأراضي الدير، وكنت أستمع إلى ما يتلوه أخ راهب على الآكلين من أسفار إلهية كما هو متبع، وإذ بأخ في الشركة يدخل ويومئ لي أن أتبعه إلى موضع رئيس الدير الأب بالآمون صاحب الشفاعات في قلايته.

ما أن رآني رئيس الدير، والذي كان قد ميزني منذ شهور قليلة بالحرف القبطي يوطا، وهو ما يعني أنني مصنف ضمن الرهبان المسالمين الودعاء حتى بادرني بقوله - ليساعدك الرب يا أمونيوس، فلقد وصلك مكتوب الآن. أمك مريضة جدا.

ثم إنه ناولني رقعة البردي الصغيرة وما أن طالعتها ووقع بصري على حروفها، حتى انقبض قلبي، وكادت الدموع أن تسح من عيني، إذ

كانت كلماتها المكتوبة بالقلم القبطي، وبخط أبينا سرابيون رئيس بيعتنا في قربيط والذي أعرفه جيدا تقول: «ليتك تأتي على وجه السرعة - إن استطعت - فأمك المسكينة قد تسلسلت في المرض».

لم أكن قد ذهبت إلى قربيط منذ مغادرتي لها منذ ست سنوات، فلقد انقطعت للديرانية عندما بلغت الرابعة والعشرين من عمري، وتركت كل ما هو علماني وجسداني، مخلصا نفسي للديانة القويمة في زماننا الصعب هذا، حيث كان التضييق يتم على البيع والديورة شيئا فشيئا، بسبب هدم الكثير منها، وفرض الخراج على الفلاحين، الذين كان كثير منهم يهرب إلى الديورة ويلوذ بها بسبب افتقاره وعجزه عن تسديد ما عليه من ديون خراجية، لذلك لم يكن قبولي بدير مريوط بالأمر الهين لولا توصية الأب سرابيون الذي أدين له بتعليمي كتابة وقراءة اللسان القبطي، وكذا أسرار الطبابة والشفاء. ولقد حزت على شرف الديرانية بمريوط، لأن شرطانية الرهبنة كانت من نعم الرب على عبده المسكين، فأنا لست هاربا من عدالة أو مسئولية، كما أني قضيت ثلاث سنوات تحت التمرين والمراقبة أعيش ببيت عند بوابة الدير قبل أن يسمح لي بالسكن في قلالي الرهبان.

أطرقت ولم أقل شيئا ، وتجلدت حتى أحبس الدموع المتجمعة في عيني، فأنا لست حرا في أمري، ولا أستطيع أن آتي أمرا من الأمور إلا بإذن من الأب بالآمون، لكنه سرعان ما أخرجني مما أنا فيه من هم وتفكير وقال: .

- أذهب لرؤية أمك التي سنصلي للرب من أجل شفائها وعليك أن تعود بأسرع وقت، وليحفظك المخلص ويحمي طريقك من الشرور.

حزمت أمري على عجل، فلم أغير غير جلبابي الواصل إلى الركبتين والذي هو بلا أكمام كما هو متبع والمزمم بحزام الجلد، ولما كانت القلنسوة المصلبة على رأسي، فقد اكتفيت بوضع جلد الماعز على بدني، وهو ما يلزم الخروج من الدير، رغم أنني حرصت على ارتداء عباءتي الفضفاضة المزدانة بصليبي الملون الناطق بالرتبة الكهنوتية التي أحوز عليها، وبينما كنت أقترب من بوابة الدير وإخواني الرهبان يقومون بتوديعي، طالبين لي السلامة والأمان خلال طريقي الممتد حتى قربيط، إذ بهانتيوس العابد قد ظهر فجأة، فما أن رآني، حتى حياني، وحيا إخواني جميعا ثم ابتسم ابتسامة بدت لي غامضة ثم قال:

- مَرضي بمشيئة الرب في تسفارك الطويل.

كان مانتيوس شيخا عابدا متوحدا يطوف ويجول، ويظهر ويختفي وهو لابس الخرق حتى في أكثر أيام الشتاء برودة وثلوجة، وكان له صوت شجي، يزداد جماله عندما يأتي في الليل ويترنم ترانيمه وتسبيحاته الخاشعة بقبطيته الجنوبية، فيتردد صدى كلماته في الفضاء الممتد حول الدير، مما يجعل الجميع يسبح للرب ويبتهل، وكان مانتيوس يحفظ أشعارا قبطية قديمة تفيض حكمة وأدبا، لذلك وبعد أن بادرني بكلماته عن السفر وجدته ينشد فجأة بقبطيته المعهودة، وما معناه بلسان العرب:

كنوزك يا مصر لا هي فضة ولا ذهب.

كنوزك مدفونة في كتب من مضى ومن ذهب.

لا أعرف لماذا اضطربت قليلا واجفلت عندما سمعت ما قاله ذلك العجوز العابد، والذي بدا لي بلا سبب ظاهر خلال ذلك الوقت، لكنني كنت مدركا كما يدرك جميع من حولي، أن مانتيوس كان رجلا ذا كرامات ربانية وتجليات إيمانية، لأننا كثيرا ما كنا ندخله الدير، لنطعمه وهو لا يأكل إلا قليلا، وكنا نرى الطير يأكل من يده، وحتى الغراب الحذور، كان يلتقط الحب من كفه، وكان البدو والعربان المحيطون بالدير يخشونه على ضعفه ويردون للدير بعض ما يسلبونه منه في أثناء إغارتهم عليه كرامة له، إذا ما طلب منهم ذلك، بعد أن نشتكى له.

نزلت من على البغل المتين الذي كان زملائي قد زودوني به من مزرعة الدير، وانحنيت على رأس مانتيوس فقبلتها وأنا أقول له:

- أمي مريضة جدا، وأنا ذاهب إليها، فلتدع الرب ليمن عليها بالشفاء ويبرئها من علتها.

تأملني مليا، وراح يتفحصني، ثم إنه همس لي بصوت يكاد لا يسمعه من حولنا:

- إن الرب يدعوك لما هو أبعد من ذلك يا بني، فليوفقك لما فيه الخير والصلاح لعباده أجمعين. لسوف تصادفك من الأمور ما قد يصعب على نفسك، ولسوف ترى ما لم تره عيناك من قبل، وإذا ما صادفك بشرا ليسوا مدركين لما تدركه فترفق بهم، واطلب لهم المغفرة من ربك في كل حين.

توجست من كلماته أكثر مما شعرت به عندما تبسم وأنشد نشيده منذ قليل، قلت:

- أنا ذاهب فقط إلى قربيط حتى أعود أمي. لن أتأخر، ولقد استأذنت من الأب بالآمون، بل هو الذي تفضل وسمح لي بالخروج إلى بلدتي قبل أن أطلب منه ذلك.

ربت على ظهري ، وتمتم لنفسه بكلمات لم أفهمها، ثم إنني غادرت البوابة، بعد أن ساعده الرهبان في الدخول إلى الدير.

لم يكن الطريق من مريوط إلى قربيط سهلا، وكان عليّ أن أقطعه إن اجتهدت في السير خلال بضعة أيام، كان عليّ أولا أن أقطع مسافة في الصحراء، حتى أصل إلى المدينة العامرة التي هي الإسكندرية ومنها أركب النهر الواصل إليها بالمراكب والمعادي هابطا إلى مدن وبلدات أسفل الأرض حتى أصل إلى بلدتي قربيط، والتي تقع بالقرب من بسطا وتمى، وكنت أحمل بعض الدنانير القليلة وقد زودني بها الأب بالآمون لزوم هذا الارتحال، والحقيقة فإن معرفتي بالطبابة وحنكتي في جانب منها، وتوفيق الرب قبل ذلك وفر عليّ الكثير، فنوتي القارب الذي نقلني ودابتي من الإسكندرية كان يعاني خراجا بضرسه، يسومه العذاب فقلعته له وطهرته ببعض من نبيذ أباركا الذي نصنعه بالدير من أوائل الثمار، والذي كنت أحمل بعضا منه ضمن مواد أخرى في صندوق طبابتي، ثم إني وضعت مكان القلع لبخة النطرون والبصل والخل وأعطيته قدرا يسيرا من نبات الأفيون حتى يخف ألمه، لذا، فإن هذا القبطي المسكين رفض أن يتقاضى أجرا وأوصلني إلى مبتغاي، بل وقال إن وجودي معه على القارب بركة من عند الرب.

وكان رداء الرهبنة الذي أرتديه، يجعل الجميع يجلني، حتى العرب الإسماعيليين الذين كنت أصدافهم في طريقي كانوا يلقونني بالتحية والبشاشة، وفي أحد المرات أصر أحدهم وكان قد نصب للشواء، أن أشاركه ذبيحته، فلما اعتذرت لأني راهب ولا آكل اللحم إلا عند الضرورة، لأنه يقسي القلب ولا يحننه ، غضب وظن أنني إنما أقصد إهانته، فلما أفهمته بلطف المقصد من رفضي، زال غضبه وسألني أن أدعو ربي حتى تلد زوجته الموشكة على الوضع.

قبل وصولي إلى قربيط كنت أمر بقرى وبلدات كثيرة تفشى بها الوباء، وكان هذا الوباء عجيبا يصيب الكبار والصغار بعد أن تقعدهم حمته الشديدة أياما فإن شفوا بعد تراجع الحمى وكتبت لهم الحياة، فإن الفقاقيع والبثور الكثيرة المنتشرة على الوجوه، تترك حفرا بغيضة مشوهة للخلقة، حتى أن أكثر الطلعات بهاءً، تتحول وكأنها وجوه لشياطين مخوفة، وقد كان هذا الوباء يحصد في اليوم الواحد عدة أنفس ويختص بالأطفال، وقد أصاب بعض الناس بالعمى وربما الصمم، وقد يكون بالاثنين معا.

وكان الناس يحكون لي عند ذلك ويقولون إن العلاجات التقليدية التي اعتادوها، وهي خلط الخل الحاذق بالحصرم والبصل والحناء بقدر متساو ودهن الجسد به لا تنفع ولا تفيد في علاج هذا الوباء الشيطاني،

وفي الحقيقة لم أكن أعرف علاجات غيرها، وكان هذا يؤلمني ويشعرني بالعجز والتقصير خصوصا عندما أكتفى بكتابة الرقي لهم والتضرع إلى الرب أن يشفيهم، دون أن أقدم لهم يد العون والمساعدة رغم معرفتي للحكمة والطبابة واشتغالي بهما منذ كنت في بيعة قربيط، ومعالجتي كثيرا من البربر الذين كانوا يحيطون بديرنا في مريوط ويعيشون في صحرائها، غير أن هذا الداء المحير، والذي بدت معاناة العباد منه كان مستغلقا على معرفتي وفهمي، فكنت أصبر الناس على ما هم فيه وأقوم بالقراءات الربانية لهم حتى يعفو الرب عنهم ويزيح عنهم هذا البلاء، وكنت أفكر في الذين عاشوا قبلنا في هذى البلاد، ولماذا لم يبتدعوا علاجا لذلك المرض الخطير.

وطوال تسفاري، لم ينقطع تفكيري في أمي ومرضها قط، وكانت هواجسي بشأنها تزداد كلما اقتربت من قربيط، فرغم أنها ليست كبيرة السن، فإن أمراضا وعللا أصابتها بسبب كثرة الحمل والإنجاب والاشتغال داخل منزلنا الكبير ومعاونتها أبي خلال وقت الزرع والحصاد، وكنت أتمنى على الرب طوال الطريق أن يحفظها من التلف، وأراها حية ترزق مرة أخرى بعد سنوات غيابي عنها، ومذ أن غادرت قربيط لألتحق بدير مريوط.

وكانت تصاوير لها تمر بمخيلتي، فأتذكر وجهها الطيب الرائق ونظراتها الحانية الطالة من عينيها المكحولتين دوما، وهي ما كانت تحرص عليه، رغم كدها الدائم وتعبها وانشغالاتها الكثيرة بين العمل في الغيط والعمل في البيت.

وكنت وبينما أنا راكب على البغل أقطع الطريق مسترسلا في تذكر ما كان من أمر عائلتنا أيام حياة أبي قبل وفاته مفلوجا بسبب أن أختا له تزوجت برجل ملكاني لا يتبع كنيستنا اليعقوبية ويعتقد في التجديف بطبيعة الرب، وكانت عمتي هذه لديها منسج تنسج به الأقمشة الكتانية ويشاركها أبي فيه، إضافة إلى قراريط من الأرض كانا قد ورثاها معا عن أبيهما، فوضع الرجل الملكاني هذا يده على كل شيء وأوقف ما ناب أبي من كل شيء، وكان رئيس بيعتنا اليعقوبية لا سلطان له على هذا الرجل الملكاني، فاشتكاه أبي إلى ملتزم الخراج ببلدتنا قربيط، فلما لم ينصفه فلج أبي ومات بحسرته بعد ذلك بقليل، ولم تكن حسرته بسبب ضياع أرضه وماله فقط، ولكن قهره كان سببه الأول هو أننا القبط على مذهب يعقوب الذي أخذه عن الأب البطرك أنبا تاودوسيوس ومعتقدين في أن للسيد المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة من مشيئتين وأقنوما واحدا من أقنومين على عكس الملكانية الذين منهم زوج عمتي.

كنت أفكر كم كانت أسرتنا هانئة سعيدة بينما أنا طفل صغير، حيث كان وقتي موزعا بين البيت والبيعة، التي تعلمت فيها قراءة وكتابة اللغة العربية وقبلها القبطية، وكانت الصلاة في المبتدأ تتلى بالقبطية، لكن مع وفود العرب الاسماعيليين بكثرة للبلاد، بدأ لسانهم يشيع وينتشر ويتخلط مع اللسان القبطي في البداية، لكن العربية قويت واشتدت حتى أن بعض آباء الكنيسة خشوا من أن ينسى الناس الديانة وتغيب عن عقولهم أسباب فهمها واستيعابها، فعزموا على تعريب الصلاة وإن كانت بعض الكنائس بالإسكندرية قد ظلت الصلاة تتلى فيها بلسان الجريك حتى وقتنا هذا بعد ثمانية قرون ونيف من ميلاد السيد بتواريخ الروم ومواقيتهم، بينما كنائس أخرى في أعلى الأرض والنوبة مازالت صلاتها بلساننا القبطي المعتاد.

كلما اقتربت من بلدتنا أكثر، كانت تتراءى بمخيلتي صور أيامي فيها، وصور هناءات صباي الأول، وكان الخوف من أن تكون أمي قد توفاها الله دون أن أدرك رؤيتها، يمزق قلبي ويملأ كياني بحزن كثير، فكم كانت هذى الحبيبة متعلقة بي، خصوصا أنني الذكر الوحيد لها، كما أني ولدت بعد أختيَّ، ولأعترف بأن ندما قد ظل يلازمني طوال الطريق، بينما كنت أفكر فيها، وذلك لأني كنت قاسيا معها، فتركتها والتحقت بالدير، رغما عن إرادتها ورغبتها، ولم أكن مدركا مدى تعلقها الشديد بي وهي التي

كانت تنعتني دوما بحبيب قلبها، ونور عينها.

سحت دموع من عيني، وأنا أتذكر ذلك رغما عني، لكني سرعان ما تداركت ذلك، فصلبت وأنا استغفر الرب على تفكيري في أمور دنيوية، وتركت الشيطان يعبث بروحي ويتلاعب بأفكاري، لأن كل ما يدركه ابن الإنسان إنما هو بإرادة ومشيئة الرب، فلا يجوز الندم على ما فات، فالخطيئة فقط هي المستحقة لذلك الندم.

رحت أصلب وأتلو بخشوع آيات مقدسة قائلا:

> «أعطني يا رب ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت منذ القديم للمرأة الخاطئة، واجعلني مستحقا أن أبل قدميك اللتين أعتقتاني من طريق الضلالة، وأقدم لك طيبا فائقا، وأقتني لي عمرا نقيا بالتوبة، لكي أسمع أنا ذلك الصوت الممتلئ فرحا».

وهكذا قطعت طريقي متجها إلى بلدتي بين الصلاة والتلاوات الإيمانية المباركة، ومداواة كل من أقابلهم من المرضى المساكين، وفقراء الناس الذين كان بعضهم لا يطلب مني أكثر من أن أباركه، إذ يكشف هيئتي ويدرك أنني من العابدين الحافظين لكلمات الرب.

وصلت قربيط في النهاية، والفجر يتفتح على الحقول الخضراء الممتدة، بينما رائحة الزرع المغتسل بحبات الندى تملأ المكان وقد اختلطت بروائح الأرض السوداء. كانت مشاعري قد جاشت وتخالطت بنوبات الفرح الحزن. كنت فرحا بعودتي مرة أخرى إلى مسقط رأسي وأرض مولدي، ومنبع هناءاتي الأولى، لكنني كنت حزينا متوجسا أيضا، من ألا أرى تلك النظرة الحنون الحزينة تطل من عيني أمي مرة أخرى. كنت أعرف أن بداخل أمي حزنا دفينا ليس بسبب موت الكثير ممن أنجبتهم، ولكن الغصة لم تفارق روحها بسبب أختها الوحيدة وتوأمها، والتي كانت قد تبقت لها من كل عائلتها، فلقد تزوجت هذه الأخت برجل عربي إسماعيلي منذ سنوات بعيدة، ولم تعد أمي ومنذ ذاك الوقت تعرف عن أخبارها شيئا، ولقد حدثت هذه الفاجعة والتي لم أكن أعي حدوثها لصغر سني، وقت الارتباع كما افتهمت من أمي التي حكت لي عنها بعد ذلك، فهؤلاء العرب المسلمون كانوا يأتون إلى بلدتنا مثلما يذهبون إلى البلدات الأخرى، وقت الربيع من كل عام إذا تدلت الجوزاء، وذكت الشعري، وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، وكانت بلدتنا قربيط مختصة بارتباع قبيلة من العرب تسمى جذام، كانت تأتي برجالها ونسائها وأبنائها فتحط بالبلدة لإطعام دوابها وخيولها فترعى وتشبع من زروع الأرض، وتمكث جذام بأراضينا وقتا

قد يكون شهورا، فتعود جذام من حيث أتت، بعد أن تعيش بين أهل البلدة وكما تقول أمي في مودة وسلام، وتسود بسبب ذلك حالات من المرح والسرور بسبب وجود هؤلاء الغرباء بعاداتهم وملابسهم الغريبة عنا وغنائهم ورقصهم، وكان أهل قربيط وكما تقول أمي يشاركونهم الأفراح والأتراح ويتداخلون معهم، وكانت خالتي ممن يتاجرون في السوق بالحصر المعمولة من سيقان البردي، فتصادف أنها تعرفت على ذلك العربي، وباعته حصرا لأجل الصلاة، وكانت مشيئة الرب أن يكون ذلك سببا لارتباطها به، والارتحال معه خلافا لإرادة أمي، التي كادت أن تموت وقتها بحسرتها كما تقول، بسبب حدوث ذلك الأمر.

ما أن اقتربت من بوابة بيتنا الخشبية الضخمة ذات الضلفتين المزينتين عند أعلاهما بملاكين حارسين تدلت من أيديهما عناقيد الكروم، حتى أدركت أن أمي قد ماتت ووريت التراب، إذ كانت شارة الحزن البنفسجية قد انعقدت على هيئة طوق من الزهور وقد تعلقت عند منتصف إحدى ضلفتي الباب، كما كانت فصوص الملح المبدورة على الأرض تنسحق تحت نعل صندلي المصنوع من السيور الجلدية، كانت هذه علامات الحزن ببلدتنا، صلبت بسرعة بينما قلبي ينقبض بالحزن والألم.. دفعت الباب وناديت على أختي

- تكلا .. تكلا.

جاءني صوتها كصوت الملسوع من إحدى الغرف المحيطة بفناء الدار، وكنت قد ولجته:

- آمونيوس.. آمونيوس يا أخي.

ثم إنها أطلقت صراخ الحزن وصوتت عاليا.

تعجبت لأنها لم تأتني مسرعة كما يفترض بعد غيبتي الطويلة عنها، فرحت أخطو إلى الحجرة التي جاءني منها صوتها.

تلجمت عند اقترابي وأنا أدخل، إذ كانت تكلا والتي بقيت تعيش مع أمي بالبيت لأنها لم تتزوج رغم تجاوزها سن الأربعين تتحسس موضع قدميها على الأرض بينما تستند إلى جدران الحجرة بيديها. أدركت أنها لم تعد مبصرة، لأنها لم تتطلع باتجاهي عندما دخلت. جريت إليها، أساعدها وأحتضنها، وقد حرت: هل أسأل عنها، أم عن الراحلة أمي، لكني وجدتني أقول في النهاية:

- تكلا .. يا أختي الحبيبة.. ماذا جرى لك. ألا ترين شيئا.. ألم تعودي تبصرين يا تكلا؟.

ردت تلك التي طالما أحببتها بشدة، والتي كانت أقرب لي من أختي الكبرى دميانة، والتي كانت ملاكي الحارس مذ أن كنت طفلا وقالت:

- لا .. أرى قليلا.. ولكن نحن مازلنا في مطلع النهار، والضوء مازال شحيحا.. عموما لست وحدى في ذلك فكثير من أهل بلدتنا أصابهم ما أصابني خلال الوباء، كما أن أطفالا كثيرين ماتوا، وكل الذين عاشوا تحفرت وجوههم مثلما ترى.

لم أكن قد تنبهت إلى وجهها أو طالعته، إذ بادرت إلى احتضانها بمجرد رؤياها، لكن سرعان ما هالني ما رأيت بعدما تطلعت إليه بدقة.

هتفت بمرارة وأنا أتحسسه:

- يا الله .. كل هذه الندبات يا تكلا؟. كل هذا الحفر والأخاديد يا أختي؟ أين ذهبت بشرتك الناعمة كقطعة الحرير اللامعة؟

انفجرت تكلا بالبكاء وهي تقول:

- البلاء لم يفارقنا منذ سنة، لقد مرضت أنا أولا، ولكن كتبت لي النجاة، غير أن أمك ظلت متحسرة على حالي، وما أصابني بعد انتهاء المرض، حتى مرضت هي الأخرى، لقد أصيبت بسعال شنيع، كانت تسعل حتى تنقطع أنفاسها، فقمت بحجامتها مثلما علمتني وكنت تفعل هنا

في قربيط. لقد أوقدت نتف الكتان بعد تشبيعها بالزيت، ووضعتها في الكئوس الزجاجية وقلبتها على فوهاتها حتى ينطفىء اللهب ويصعد اللحم بداخلها. فعلت ذلك لها يا آمونيوس عدة مرات، ولكن لم يفلح هذا، فقمت بنقع الكراوية في الخل الحاذق يوما وليلة ثم صفيتها وأشربتها لها مع السكر، ولكن دون فائدة أيضا، وظلت حالتها تزداد سوءا، وعندما زاد تقيؤها للدم، أرسلنا في طلبك، ولكن مشيئة الرب كانت أسرع يا عزيزي.

احتضنت يدها بين يدي وأنا أبكي لبكائها، ثم إني أخذتها برفق وأجلستها على مقعد بالقرب من سريرها، وبقيت إلى جوارها، وهي تحكي لي من بين دموعها كيف وافت المنية أمي العزيزة.

كنت أعرف أن الحجامة لا تفيد في حالة أمي، لأن الحجامة تفيد في بداية السعال والمرض فقط، لأنها تزيل المواد الضارة وتسحب الدم والقيح من الجسد، كما افتهمت من أخ راهب بدير مريوط، وكان هذا الراهب من المطلعين على كتب الأقدمين وقراطيسهم وكذا على ما سطره الوثني جالينوس.

لم أعلق على ما قالته تكلا، وبقيت إلى جوارها ساعة أستمع إلى أحوالها وأحوال أختي الكبرى دميانة التي كانت تقطن مع أولادها وزوجها الذي كان يشتغل بتنجير السواقي في قرية تبعد عن بلدتنا.

خرجت بعد ذلك لزيارة قبر أمي الواقع ضمن مقبرة القرية عند نهاية الحقول. كانت تكلا قد أصرت على أن تصحبني، فسحبتها وقد تأبطت ذراعي وسرنا في دروب القرية الضيقة عند هذا الوقت المبكر من اليوم، ولما لم أر الناس يخرجون من بيوتهم مصطحبين دوابهم، ومتجهين للعمل في الحقول كما جرت العادة، دهشت وسألت تكلا عن ذلك فقالت:

- لقد أفنى الوباء كثيرا من الناس هنا، وانعدم من يعمل في الحقول، لأن كثيرين هربوا بأسرهم كلها إلى مناطق بعيدة خوفا من الوباء.

صلبت وأنا أتأسى على ذلك، وعلى حال البلدة التي غادرتنا بينما كانت عامرة بالناس، وكنت أسأل تكلا عن أصحاب البيوت التي نمر عليها فتحكي لي عمن مات وعمن عاش منهم، ومن بقي فيها ومن غادر وهرب.

وبينما كنا نمر على أحد البيوت، خفق قلبي بشدة، وشعرت وكأن هناك من يسحب روحي مني، ويبدو أن تكلا قد أحست بما أنا فيه فقالت دون أن أسألها:

- سيرين. البقية في حياتك يا أخي.

كانت سيرين رفيقة صباي، وصنو روحي ، فقد ولدنا في أسبوع واحد، وإذا كان أبي قد نذرني للبيعة، فإن القدر قد نذرها للشقاء، إذ توفيت

أمها خلال ولادتها لها، وكما عرفت من أمي بعد ذلك عندما كبرت، ولقد رعتها أمي منذ طفولتها الأولى، إذ كانت أمها قريبة لأبي، وعاملتها وكأنها أبنة لها، فكانت تمضي في بيتنا وقتا أكثر مما تمضيه في منزل أبيها، ولطالما لعبنا سويا في الدار وفي أزقة بلدتنا الصغيرة، وحتى عندما ألحقني أبي بالبيعة، كنت أهرع إلى منزلنا بعد انقضاء خدمتي إلى بيتنا، ولم أكن أشتاق إلى مخلوق آنذاك قدر شوقي إلى سيرين.

لكن سرعان ما دخلت سيرين في ديوان النساء، وزوجها أبوها وهي في الرابعة عشرة، لواحد من كتاب الخراج بالكورة التي تقع بها بلدتنا قريبط، وكان قبطيا ميسورا وبارعا إذ تعلم لغة العرب، وأجاد الكتابة بها، فكان يلتجىء إليه لكتابة كل المعاملات التي تقع بين العرب والأقباط بالعربية وما يماثلها بالقبطية على القراطيس والرقاع.

عليّ الاعتراف بأنني كنت هائما بسيرين، ولم أعشق أية واحدة سواها، فكل النساء بنظري كن امرأة واحدة هي سيرين، وكما اعترف بأن التحاقي بدير مريوط لم يكن إلا بسبب عزوفي عن حياة الدنيا الفانية وكل ما هو جسداني، بعد أن خاب رجائي في المحبوبة سيرين.

صلبت واستغفرت الرب بينما كنت أسترجع سريعا كل ذلك وتساءلت جزعا:

- كيف كان ذلك يا تكلا؟ ومتى؟

- في نهاية السنة الماضية، عندما كان الوباء على أشده. كانت حاملا في شهرها الخامس عندما حُم طفلها الأصغر أولا، ثم لحقه الثاني، وسرعان ما أصابها الجدري هي الأخرى، فماتوا ثلاثتهم واحدا تلو الآخر مثلما مرضوا.. أمر إلهي عجيب حقا.

كادت الدموع أن تسقط من عيني، وأنا أنظر باب الدار المغلق والمنزل الخاوي من أهله خلف ذلك الباب، إذ أخبرتني تكلا بأن زوجها غادر البلدة كلها إلى مكان غير معلوم، وهناك من يقول إنه دخل في ملة المسلمين بعد حدوث ذلك.

كنا نقترب من موضع المقبرة فبدأت تكلا تندب أمها بكلام حزين مؤلم للقلب، أما أنا فكنت أصارع دموعي، وأصلب بين الحين والحين بينما أتلو

«قدوس. قدوس. قدوس رب الصباؤوت. السماء والأرض مملوءتان من مجدك وكرامتك، ارحمنا يا الله الآب الضابط للكل.

أيها الثالوث القدوس ارحمنا أيها الرب إله القوات. كن معنا لأنه ليس لنا معين في شدائدنا وضيقنا سواك»

بقيت بعد ذلك أياما بقريبط، أقيم ببيت أمي المتوفاة مع أختي تكلا، حيث كان يتوافد بعض من بقي من أهل البلدة لزيارتي، والعزاء. كانت تكلا سعيدة جدا بعودتي، رغم ما حل بها من بلاء، وكذلك لتجمعنا كأسرة مرة أخرى، إذ جاءت أختي دميانة لرؤيتي أيضا، بعد أن كانت قد جاءت وقت وفاة أمي قبل ذلك، ورغم المحبة والمودة التي كنت مشمولا بها من الجميع، فإن قلبي كان ينفطر طيلة الوقت على تكلا وما أصابها، وعلى كل الناس الذين أطاح الوباء بأفراحهم ومسراتهم، وزرع الحزن بدلا منها داخل أرواحهم. كان الفقر باديا على كل من ألتقيه، والعلل الجسدية تعمل عملها فيه، فهذا يسعل وقد أكل السل رئتيه، وهذا يعاني من لين عظام أو كسور، وذلك يأكله الجرب. كنت أحاول مجتهدا لمساعدة الناس، فأقدم العلاجات الشافية، أو أبارك وأقرأ القراءات الإنجيلية المباركة، أو أكتب للجميع أحجبة واقية من الشرور في رقاع يحملونها معهم.

كنت قد ذهبت يوم وصولي إلى بيعتنا المباركة للصلاة والتقديس، وملاقاة الأب سيرابيون الذي لم أره منذ مغادرتي قريبط إلى مريوط، ثم إنني كنت أذهب بين الحين والحين إليه، وللمكوث معه بالبيعة وقتا بعد انتهاء الصلاة. في إحدي المرات وبينما أنا ذاهب إليه، والغروب داخل على البلدة مؤذنا بقدوم المساء، سمعت بينما كنت أسير ، وكأن أحدا يهمس

بأذني بصوت نسائي خاشع، وكنت لحظتها قد أوشكت على دخول البيعة:

- اذهب إلى تكلا من أجل تكلا.

تلفت حولي مأخوذا بذلك، علِّي أجد صاحبة ذلك الصوت، لكنني لم أجد كائنا قط، فقد كانت الطريق خالية تماما، والبيوت ساكنة ومغلقة الأبواب والنوافذ ولم يكن هناك من يستعد لإشعال سراج أو قنديل، أو يهش دواجنه من الطريق ليودعها داخل الدار ولم يكن هناك حتى كلب وحيد ينبح. توقفت قليلا وقد سرت بجسدي رعدة، ورحت أتلفت حولي باحثا عن مصدر الصوت، فلما لم أجد أحدا، صلبت، وخطوت مسرعا إلى البيعة.

بعد انتهاء صلاتي بالبيعة، حكيت للأب سيرابيون عما جرى لي علِّه يجد تفسيرا لذلك الصوت الذي سمعته. نظر إليَّ بمودة وهو يبتسم ثم قال:

- ألم تفهم يا ولدي المسكين؟ إنها إشارة من عند الرب كي تذهب إلى سنجار وتزور بيعتها إن حياتنا مليئة بالإشارات التي يرسلها لنا الرب كي نهتدي بها في طريق الحياة، إنه يرشدنا ويقودنا إلى ما فيه خيرنا ونفعنا، وعلينا تفهم هذه الإشارات التي لا يفهمها إلا قليل من الناس الذين تمتلىء قلوبهم بالتقوى والإيمان الصادق.

- ولكن لماذا عليَّ الذهاب إلى سنجار على وجه التحديد يا أبي؟

- ألم تسمع عن بيعة سنجار؟ إنها بيعة على اسم السيدة الطاهرة مرتمريم وهي داخل دير، وكان بها جسد الشهيد أبو أسحق من دفري، لكنه أعيد إلى دفري، وفي صومعة الحبساء مجاورها جسد القديسة تكلا من أهل انطاكية، وهي تلميذة بولس الرسول، إضافة إلى جسد فيلاثاوس العابد الشهير، وجسد أنبا لوقا الأسقف الشهيد.

أذهب إلى سنجار، وتشفع لأختك تكلا لدى القديسة تكلا وأوقد لها الشموع، فيمن الرب على اختك بالشفاء ويعود بصرها.

دب الحماس بداخلي فقلت:

- سوف أذهب إلى بلدة سنجار يا سيدي، سأذهب إلى حيث مرقد الشهيدة تكلا، ولسوف أتضرع إلى الرب أن يقبل شفاعتها في أختي تكلا، وكل المرضى الذين ترك الوباء بهم عاهات وحرمهم من نعمة البصر. ولكن أيها الأب العزيز أريد أن أسألك عن علاجات قديمة كانت توصف لدحر الوباء، ألا تظن أن الذين عاشوا قبلنا، كانت لهم معرفة وفنون وحكمة، تغلبوا بها على كل ما صادفهم من صنوف الوباء وشروره؟ ألم يتركوا شيئا من معرفتهم هذه وحكمتهم تعيننا على ما نحن فيه الآن.

صمت الأب سيرابيون قليلا وبدا مترددا قبل أن يقول:

- معك حق يا ولدي، لابد أن من سبقونا قد عرفوا علاجات لكثير مما نصادفه ونحن لا نعرفها الآن، بل نعتمد على حكمة اليونان وماسطره حكيمهم جالينوس الوثني ولكن ربما كان السبب في جهلنا بهذا هو أنه انعدم من يعرف الأقلام القديمة، فكثير من قراطيس البرابي الوثنية وكتبهم المسطورة بأقلامهم المجهولة تحتوي على أخبارهم وطبابتهم وحكمتهم، لكننا نجهلها.

قلت بحماس:

- لكني يا سيدي تعلمت قدرا من القلم القديم الذي كان يكتب به في الماضي ومازال يفتهمه بعض الناس حتى وقتنا هذا. تعلمت ذلك بدير مريوط. علمني إياه أخ تقي متعبد جاء إلى ديرنا من أعلى الأرض من بلدة قرب قوص تدعى جراجوس.

بدا وكأنه متفاجئا بما قلت، إذ أنه حدق بي قليلا قبل أن يقول:

- بلدة القديسة الممرضة فيرينا التي ذهبت إلى بلاد الروم عند حدود الغال مع الكتيبة المصرية التي حاربت هناك بأمر الإمبراطور الوثني مكسيميانوس، وبقت هناك لتعلم الناس النظافة والطهارة والتمريض.

- لم أكن أعلم هذا يا سيدي. فليرحمها الرب برحمته.

داخلني شعور بأن الأب سيرابيون لم يرتح لما قلت، وأراد بحديثه عن القديسة فيرينا أن يغير موضوع الكلام ودفة الحديث، وأنه غير راض عن تعلمي للسان وثني قديم، فقلت:

- أود يا أبي أن أجد ما يعين الناس على بلاء المرض وإبعاد شروره عنهم. فكرت في أن أبحث عن قراطيس أو لفائف قد تكون مدفونة في بعض البرابي الوثنية القديمة، وربما وجدت بها ما كتب بالقلم الذي تعلمته في مريوط.

صلب الأب سيرابيون بسرعة وهو يستغفر الرب، وبدا غاضبا جدا وكاد أن ينتف لحيته وهو يصرخ:

- تذهب إلى برابي الوثنية؟. أنت؟. أي شيطان أوحي لك بتلك الفكرة، وذلك الجنون الكافر؟. إن كل اللفائف المكتوبة القديمة تحتوي على كفر وتجديف وهرطقة، كتبها فلاسفة الوثنية، وأصحاب الزندقة. إنها تحرف حتى الملائكة الأطهار عن طريق الديانة القويمة. إن الشياطين تسكن هذه البرابي وتعيش فيها، لتفتن الناس في دينهم وتحرفهم عن إيمانهم. ألا تعلم أن من ألفوا كتبا وزعموا أنها كتب

مقدسة، قد أخفوها في هذى البرابي؟. استغفر الرب عما قلته للتو، ولا تعد للتفكير في ذلك الأمر أبدا.

لم أكن أعرف كيف أرد على كلامه وأدافع عن نفسي وأنفي عنها ما قد يكون قد تصوره وظنه من الظنون ، وخفت أن أقول المزيد، فأشعل ثورته أكثر مما هي عليه. سكت تماما ولم أنطق وأطرقت رأسي بالأرض كمن اعتراه الخجل من ذنب قد اقترفه.

في هذه الأثناء وبينما نحن على هذي الحال، دخل علينا شماس شاب كنت أعرفه منذ أن كان يافعا يخدم في بيعتنا هذه، وقال وهو يلهث ويصلب ويقدم لنا التحية.

- لقد انتفض أهل البشمور، وثاروا منذ يومين مرة أخرى، وقاموا بقتل ضامن الخراج بنواحيهم، وبات من الصعب العبور بها، وتعطلت مصالح كثير من الناس بسبب الفوضى وتفشي الخوف.

صلب الأب سيرابيون واستغفر الرب ثم قال وقد بدا عليه الأسف:

- إذن أنت لن تستطيع الذهاب إلى سنجار يا آمونيوس، لأنها من كرسي البشمور فليرحم الرب أختك تكلا ويعفو عنها.

سكت، وأسقط في يدي، لكني فجأة ولسبب لم أفهمه وجدت صورة الشيخ العابد ماتنيوس تقفز إلى ذهني، بينما هو ينشد كلماته، وأنا مغادر لدير مريوط. كانت هذه الكلمات لا تبارح رأسي، وكنت أفكر في معناها ومغزاها دوما. كدت أن أقول للأب سيرابيون، إنني سأغادر عند الغد قربيط وأعود إلى مريوط، لكني تنبهت إلى ما قاله منذ قليل عن الإشارات، وكانت فكرة قد أشرقت ولمحت بذهني عندئذ، وساءلت نفسي: أليس يسوع من شفى الأبرص، وأعاد البصر للأعمى؟. أليس هو من رفع البلاء عن الناس وداوى آلامهم وجراحهم؟ أليس هو من مد يده للمحرومين، وساند المساكين؟.

فلماذا لا نقتدي بفادينا ونسعى لفعل ما كان يفعله؟.

لماذا لا أذهب للبحث، لا عن الذهب والفضة، ولكن عن كتابات متروكة، وصحائف مجهولة، كتبها من سبقونا، وربما دونوا بها علاجات شافية لا نعرفها نحن حتي يومنا هذا لهذا الوباء اللعين، وكل الوباءات الأخرى التي تفتك بالناس بين الحين والحين؟.

كانت مشاعري ثائرة متناقضة خلال ذلك، ولم أكن مدركا لما هو الصواب ولما هو الخطأ. كنت أفكر في الديورة ورهبانها، ورهبان الصحراء المتوحدين، وأتساءل لماذا لا يسعون لخلاص الناس مما هم فيه؟. لماذا

نسعى لخلاص أنفسنا فقط بالصوم والصلاة والتقوى والعبادة؟. أليس يسوع من قال:

«أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح؟ لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجا ويداس من الناس. أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين بالبيت، فليضىء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدون أباكم الذي في السماوات».

بقيت على دابتي بعد أن خرجت من قربيط صبيحة اليوم التالي، كنت أقطع الطرقات بصعوبة، بسبب الوحلات، ولا أتوقف إلا للصلاة والراحة، أو التزود ببعض من باقلاء الأرض التي أعبر بها ، كان البؤس متفشيا في كل مكان أمر به، وكان كثير من الناس يجلسون على بعض المواضع بالطرق، يتسولون ويستجدون كل من يمر علَّه يعطيهم شيئا يتقوتون به، وكم من وجوه شوهاء صادفتها، وقد اغتال نضرتها وبهاءها ذلك المرض اللعين.

كان كل الذي أشاهده هذا يزيدني يقينا بصواب ما أنا مقدم عليه، ويزيد حماسي للذهاب والبحث في البرابي القديمة عما قد يعين الناس على

التخلص مما هم فيه، فالجدري لم يكن المرض الوحيد الذي يداهم الناس ويتفشى فيهم فجأة، ولكن وفي كل عام يطيح مرض آخر من الأمراض بآلاف الناس، ويهدم حياتهم بعد أن يقلبها رأسا على عقب.

كنت أغذي السير باتجاه مدينة سمنود، وقد اعتزمت الذهاب إليها، لما كنت أعرفه عنها من أخ كان ملازما لي بدير مريوط، كان قد ولد وعاش بها حتى أتى إلى ذلك الدير وعاش معنا حياة الشركة فيه.

وكان هذا الاخ الطيب والذي يدعى بسطورس قد أخبرني بأن سمنود هو اسم أحد أولاد لوطيس أبن حربتا وهو صادوق الواهب لسارة زوجة إبراهيم هاجر الأمة، وكان ساكنا بموضع يقال له الفرما، وقد عرفت منه كذلك، أن هذه المدينة إحدى المدن الثلاث التي يصلي فيها باليوناني، ومعنى سمنود هو موجدة الآلهة وذلك باللسان القديم المهجور.

كان ما يحمسني ويجعلني أغذي السير باتجاه سمنود هو أن بسطورس هذا، كان قد أعلمني أن بمدينته وحتى الآن بقايا معبد وثني قديم كان قد تهدم أكثره بفعل زلزال قوي بعد نحو ثلاثة عقود من ميلاد السيد الرب، وأن به من كان يعمل صناعة الكيمياء ويشتغل بالحكمة والطبابة، فقلت علني أجد به بعضا من الكتب القديمة أو القراطيس المكتوبة باللسان الذي تعلمته بالدير، تعينني على معرفة علاجات شافية لهذا الوباء الجاثم

على الأرض الآن، وربما لأوبئة وأمراض أخرى لا يقوي أهل الطبابة على مواجهتها.

وصلت بعد كدٍّ إلى سمنود، وسألت عن مكان البيعة المعروفة بصهيون، وهي البيعة التي كان بسطورس قد تربي ونشأ بها. كان وصولي وقت صلاة الغروب، فحمدت الله على ذلك، فدخلت البيعة وأنا أصلب وقد هالني أن البيعة كبيرة جدا، وهي على اسم السيدة الطاهرة مرتمريم ويحيط بها سور دائر، وكانت هذه البيعة تقع في منتصف البلدة تقريبا، وكان داخل هذا السور وكما كان واضحا لي عدة كنائس كذلك.

كنت أنتوي المبيت بالبيعة بعد أن أُعرّف أهلها بنفسي، وأقول لهم عن معرفتي ببسطورس، ثم أسالهم معاونتي على الذهاب إلى برباها والسؤال عما يكون بها من كتب مازالت محفوظة.

أدخلني القيم الذي كان يخدم وهو شاب صغير نشط إلى حيث كان القساوسة مجتمعين للصلاة، فانضممت إليهم ، بعد أن عرفتهم بنفسي وبالغاية التي أتيت لأجلها إلى بلدتهم سمنود، وحكيت لهم عن مغادرتي دير مريوط وما كان من أمر وفاة أمي ومرض أختي، وكذا عن الوباء وتفشيه في قربيط.

وخلال ذلك وبينما أحكي لهم كانت تعتريني وتشملني طمأنينة وراحة كبيرة بعد أن حكيت عن غرضي، فهؤلاء القساوسة المجتمعون الآن، لابد أن يقدموا العون لي حتى أحقق غايتي. كنت أعول كثيرا على ذهابي إلى تلك البربة القديمة ببلدتهم والتي أخبرني بسطورس أن الكاهن الأكبر بها والمدعو مانتون، كان أعلم أهل مصر بتاريخ ولغة القدماء زمن الحكم الإغريقي الوثني بطليموس، فكلفة ذلك الرجل بكتابة ما يسمى أجيتياكا بلغة الإغريق أي تاريخ المصريين منذ بداية الخليقة، نظرا لضلوعه في معرفة القلم الوثني العتيق، وتمكنه من قراءة ما هو مسطور في أوراقهم ورقوقهم القديمة، وقد مكن ذلك الحاكم ذلك الحكيم مانتون والذي كان أكثر العارفين بالكهانة والفلك من كل ما هو موجود بخزائن المعابد في مدينة تانيس وهليوبوليس التي هي أون، وقد كان هذا الكاهن هو من جعل الإغريق يسجدون لسيرابيس ذلك الوثن العجل الذي نجح آباؤنا المسيحيون الأطهار في تحطيم معبده بالمدينة العامرة التي هي الإسكندرية بعد قرون من ذلك.

كان ذلك بعد أن انتهينا من الصلاة، وقد ظلوا صامتين يستمعون إلى ما أرويه لهم، وما أن انتهيت، حتى بدأ بعضهم يسألني عن الأحوال في برية مريوط، فأخبرتهم أن هجمات البربر اللوبين ما فتئت تتكرر بين الحين والحين على ديرنا ومزروعاته، وفي آخر مرة ومنذ شهور قتلو راهبا كان

قد خرج ضمن من خرجوا معه لصدهم عن الدير، رغم أننا نحنو كثيرا على هؤلاء البربر ونمد لهم يد العون بالعلاج والمؤن أحيانا.

ثم دار بيننا حديث طويل، افتهمت منه أن المعبد القديم بالبلدة لم يتبق منه شيء تقريبا، إذ تهدم معظمه، وما بقي من أحجاره الضخمة مازالت مكومة بمنطقة مهجورة، أما ما كان به من أوان وتماثيل ولفائف وتمائم فقد نهبت منذ أزمنة بعيدة، وحتى قبل دخول الإغريق والروم إلى البلاد وسطوهم على ما تبقي من ذلك، وحتى إن بقيت لفائف وقراطيس فقد طالتها يد الإهمال منذ زمن أيضا، لأنه وبمرور الأيام عز من يقرؤها ويفتهم ما سطر فيها.

لاحظت أن بعضهم ظل صامتا، يتحفظ في الكلام معي، وكان يتبادل النظرات الموحية خلال ما أقول، ثم إن واحدا استنكر قائلا «وأي فائدة تلك التي ترجى من بيوت الأوثان، وأي علم ينتفع منها. إن اللفائف القديمة مليئة بالكفر والتجديف والسحر الشيطاني الجالب للشرور. عجيب تفكيرك في هذا يا أخي».

بدا وهو يقول عبارته الأخيرة، وكأنه يتشكك في اتباعي الديانة القويمة فسكت، وفي الحقيقة فقد أدركت أن أي كلمات سوف أنطق بها، سيساء فهمها وتؤول إلى غير مقصدها الشريف.

سمح لي رئيس البيعة أن أبيت في البناية الصغيرة المخصصة للغرباء والواقعة عند نهاية السور، وبينما أنا ذاهب للنوم، وجدت من يتسلل في الظلام ويتبعني، ثم إنه همس لي:

- أيها الاخ الطيب، عليك أن تفعل ما تبتغيه بصمت حتى لا يساء فهمك.

قلت مستفهما وأنا جزع:

- ماذا تقصد يا أخي بحق السيد والسيدة؟.

قال وهو يتلفت:

نحن في هذه الأيام لسنا بمأمن من شيء، فالبعض عاد يطالع في الكتب القديمة وأناجيل الكفر، وقراطيس أصحاب البدع والهرطقات، وهناك من يقرأ كتب المسلمين والصابئة في خفية، ثم هناك كثيرون يتركون دين المسيح ليلتحقوا بملة محمد، ومنهم قسس ورهبان من كنيستنا العامرة وكنائس أخرى.

صلبت بسرعة محاولا استبيان ملامحه في الظلام وأنا أقول:

- حاشا الرب يا أخي. مالي وكل هذا، وإيماني قويم لا تشوبه شائبة، إن كل ما أبتغيه من هذه الزيارات هو إيجاد علاجات لما نحن فيه الآن.

رد بسرعة:

- إن ذلك لا يعني أن هؤلاء الإخوة ليسوا على حق، لأن الذهاب إلى البرابي ليلا والنبش فيها خلسة، ساد وانتشر خصوصا بعد تسيد العرب المسلمين الذين يلعنون الأوثان وبرابيها مثلنا نحن أهل المسيح، والنباشون يبتغون العظام ورمم الموتى، لأنهم يبيعونها بأثمان عالية للمشتغلين بالسحر، وللمعالجين من الداءات الميئوس منها، احذر يا أخي من كل ذلك، أولا تعلم أن بعض هؤلاء النباشين، يسعون إلى اللفائف الكتانية القديمة الملفوف بها رمم الأقدمين، لأن الطلب عليها زاد كثيرا هذه الأيام بسبب استخدامها في عمل الورق والكاغد اللازمين للكتابة، وأنت تعلم أن استخدام البردي في الكتابة قد أخذ في التراجع يوما بعد آخر، وخصوصا أن العرب يفضلون الورق في مكاتبات دواوينهم وأمور الجزية والخراج. ثم إنه صمت قليلا قبل أن يتابع:

- أنا أشعر أنك نقي وصادق فيما تقول وترغب به، ولكن انتبه يا أخي حتى لا يساء فهمك، ثم إن ضالتك لن تكون هنا، فبربة سمنود لم يتبق منها شيء. عليك بالبرابي القديمة في مدينة مصر، وبرابي أعلى الأرض البعيدة، والتي قد يكون بها من يشتغل بالطب حتى يومنا هذا، أو تجد فيها بعضا مما كان في الزمن القديم.

بدا الرجل متحمسا لما تحمست له، موافقا لي فيما أرتئيته، وغير مشكك في نيتي ومقصدي، فقلت له وأنفاسي تكاد أن تنقطع من التأثر والانفعال، إذ شعرت وكأنه قد قرأ ما بداخلي من أفكار.

- ولكن ولأصدقك القول - أنا لا أدري كيف يكون ذلك، فأنا لم أذهب من قبل إلى مدينة مصر، ولم أذهب إلى أي مكان مذ أن غادرت قربيط إلا إلى مريوط.

همس مرة أخرى وهو يربت على كتفي.

- انتظر حتى الصباح فقد يوفقني الرب في أمر يعينك على ذلك، ويكون فيه الخير لك بمشيئة سيدنا.

ثم إنه ودعني ومضى متسللا إلى من حيث جاء.

ما أن اختليت بنفسي بعد ذلك، إلا ورحت أفكر في كل ما قاله لي ذلك القس الطيب، كان صوته الشاب يتردد صدى كلماته في أذني. حاولت استعادة هيئات الذين كنت مجتمعا معهم منذ قليل، واستدعاء ملامحهم وتذكر أصواتهم. كان جلهم من الشيوخ والعجائز الذين لا تتشابه أصواتهم مع صوته المبحوح قليلا، ولم تكن هيئته التي بدت لي رغم الظلام تتشابه مع

هيئاتهم. في النهاية وبعد تفكير خمنت أن محدثي الذي مضى منذ قليل، ربما كان ذلك الشاب الذي جلس بأدب في الركن القصي من المجتمعين، وبقي صامتا لا يتحدث، بينما كان يحدق بي ويتفرسني بعينيه الضيقتين بين حين وآخر، وكأنه يحاول الوصول إلى حقيقة كنهي وسبرغوري.

كنت متوجسا مترددا خلال ذلك، بينما أفكر في صعوبة الارتحال في الطرق الوعرة، الخطرة بسبب القلاقل، ومشاحنات قبائل العرب المنتشرة في كل مكان، رغم أنهم يوقرون الرهبان ولا يناصبونهم العداءات، كنت أفكر في كل هذا، وفي الذي سوف يكون من أمري عندما أعود إلى دير مريوط بعد غياب، خصوصا أن الأب بالامون قد وضع ثقته بي وسمح لي بالمغادرة لمعاودة أمي.

كان بداخلي يتمزق وقد أخذني كثير من الظنون وأنا أقلب الأمور على أكثر من وجه، وفجأة برزت بمخيلتي وأنا جالس في الظلام هيئة ذلك الذي حادثني منذ قليل، وقد تذكرت كيف كان يرفع يده إلى فمه بين الحين والحين، بينما كنت أتكلم، وكأنه يقول لي «أن أصمت».

تذكرت ما قاله الأب سيرابيون عن الإشارات، وداخلني يقين عظيم عندئذ بما يتوجب عليَّ فعله.

صرت تعبا منهكا من كثرة التفكير، فغفوت دون أن أدري، ورأيت فيما يرى النائم أنني أخوض في مخاضة ماء لا نهاية لها، إذ كنت كلما اتجهت لأسير طالبا الخروج منها لا أجد حولي غير الماء، بينما السماء فوقي رمادية مضببة بضبابات داكنة لا تستبين منها زرقة أو بياض، صلبت ودعيت الرب، طالبا خلاصي، وما هي إلا هنيهات، حتى رأيت نورا عظيما ينبثق من بين الضباب، وشيئا فشيئا يستبين قرص الشمس الذهبي، فما مر إلا وقت يسير حتى اكتمل ونضج وبدا بالغ السمو والبهاء، سبحت وصلبت وقد شملني بالفرح كل هذا البهاء، وفجأة جاءني صوت وكأنه صوت ذلك القس الذي نصحني بالصمت والسكوت عندما كنت مجتمعا مع أهل البيعة، وقال بنبرات واثقة مطمئنة:

- اذهب إلى حيث كان أولئك الذين فكروا في الخلق والخليقة وإبتداع الكون.

ارتديت إلى الصحو مرة أخرى، وروحي مشبعة بما جرى لي في المنام، كانت الظلمة دامسة، والسراج الذي أشعلته قبل نومي بينما كنت يقظا قد انطفأ. تلفت حولي، عليّ أسمع صوتا، أو أتبين شيئا، فلم أسمع غير الصمت، ولم أر خلاف الظلام. رحت أصلب وأصلي، بعد أن استعدت رؤياي، وتمتمت بصوت مسربل بالإيمان والخشوع:

أيها الرب إله القوات، الكائن قبل الدهور، والدائم إلى الأبد، الذي خلق الشمس لضياء النهار، والليل راحة لكل البشر، نشكرك يا ملك الدهور لأنك أجزتنا هذا الليل بسلام، وأتيت بنا إلى مبدأ النهار، من أجل هذا نسألك يا ملكنا ملك الدهور، ليشرق نور وجهك، وليضيء علينا نور علمك الإلهي، واجعلنا يا سيدنا أن نكون بني النور وبني النهار لكي نجوز هذا اليوم ببر وطهارة وتدبير حسن، لنكمل بقية أيام حياتنا بلا عثرة. بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لابنك الوحيد يسوع المسيح وموهبة روحك القدوس. الآن وكل أوان وإلى الأبد آمين.

وهكذا أمضيت بقية ليلي أتلو مزمورا وراء مزمور وأصلي طالبا خلاص نفسي، حتى أنبلج صباح يوم جديد وتبدت الشمس كعروس في السماء.

قمت واغتسلت ثم ارتديت ثيابي، وبعد انتهائي من صلاة باكر، وهي أولى الصلوات التي أشار إليها النبي داوود في مزموره الكبير بقوله «سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك»، وجدت من يدق عليّ بابي، وإذا بصاحب الصوت الذي كان قد جاءني في بهيم الليل واقفا عند الباب فلما فتحت وجدته كما خمنت شابا تلوح من ملامحه علامات التقوى والإيمان قال:

- جئت لتحيتك قبل أن تغادر، عند أول الطريق المؤدي إلى خارج البلدة، ستجد من يعاونك فيما أنت منتوٍ عليه.

كدت أتكلم لأسأله وأستفسر عن ذلك، لكنه لم يفسح لي مجالا، إذ تركني بسرعة وانصرف وهو يشير لي بالصمت.

ودعت الجميع في البيعة بعد أن شكرتهم على استضافتي خلال الليلة الفائتة، وركبت بغلي بعد أن أهدوني بعضا من خبز الفلاحين المسمى بتاو مما يصنع من البر والحلبة، وكان معي بعض الجبن والعسل مما كانت تكلا قد زودتني به عند خروجي من قربيط، وما كدت أنهي الطريق الخارج من سمنود حتى وجدت من يلحق بي ويناديي

- أبونا .. أبونا .. انتظر.

تلفت ورائي بعد أن لكزت الدابة للوقوف، لأجد صبيا لم ينبت شاربه بعد يقول لي وهو يلهث بسبب محاولته اللحق بي:

- توقف.. توقف. عمي أبانوب يريدك.

كان رجلا قد جاء يسعى خلف الولد، وقد أثقل خرج حماره بأحمال، بدا لي بشوشا مرحا إذ قال:

- لماذا كل هذه السرعة أيها الأب العزيز، حمدا لله أني لحقت بك، وإلا كان الأب سلوانس سوف يوبخني، فهو الذي أرسلني إليك لترافقني في السفر إلى مدينة مصر.

تعجبت جدا من ذلك، فلقد تركني ذلك الأخ سلوانس الذي أعرف اسمه لأول مرة من ذلك المدعو أبانوب، أضرب أخماسا في أسداس بعد أن تركني ومضى في البيعة دون أن يدعني أسأله شيئا، وذلك بعد انتهاء الصلاة. عموما، داخلني شيء من الراحة، وكثير من الفرح، إذ كنت والحق أقول - لا أعرف كيف ستكون وجهتي على وجه التعيين حتى أصل إلى مدينة مصر، وكنت قد انتويت أن أسأل الناس خلال الطريق، أو أسير حذاء اليم فأسأل بعض النوتية أن يحملوني إليها.

مد الرجل المدعو أبانوب يده ليحتضن يدي ويقبلها، فلما سحبتها بسرعة لكيلا يفعل، أجفل قليلا ثم قال بخجل:

- أبانوب.

ثم أشار إلى الفتي الذي يرافقه وسماه:

- إبساي أنوب أبن اختي.

انحنى إبساي على يدي بسرعة ولثمها رغما عني، فربت عليه وتساءلت:

- هل انتما ذاهبان إلى مدينة مصر للعيش فيها؟

- لا يا أبتاه، فنحن نعيش فيها بالفعل، فأنا تاجر بخورات وعطورات، أطوف بالبلدات لبيع تجارتي؟ لكني أعيش في مدينة عون مع عائلتي. قال أبانوب وتساءل:

- ولكن إلى أي مكان أنت ذاهب في مدينة مصر؟ هل ستذهب إلى كنيسة قصر الشمع، أم إلى واحد من الديورة التي بها؟

حرت، فلم أجب عن سؤاله في التو، لكني تداركت وقلت:

- سأذهب إلى كل هذه الأماكن وغيرها، لكني أريد الذهاب معكم إلى مدينة عون كذلك، فلي مطلب فيها بمشيئة الرب، ولكن أليس اسمها أون.

- الرب أعلم يا سيدي. لكن نحن الأقباط درجنا أن ندعوها مدينة عون.

عـــون

ركبنا النهر نازلين إلى مدينة مصر، وخلال التسفار، تعرفت بقائد مسيرتي - بعد الرب - عن قرب ، والذي هو أبانوب، ولقد أيقنت من خلال الوقت الذي امضيته برفقته، إنه من أطيب الناس وأكرمهم خلقا ، كما أنه واسع المعرفة بصنوف البشر، حتى أنه يتعرف على بعض ما بدواخلهم ، وقد حذرني ذات مرة من رجل شحاذ فقير صادفنا في الطريق، كان يرتدي الخرق، ويبدو عليه العرج، فقال أبانوب، إنه ربما كان في الحقيقة شخص خطير وقد ثبت قوله، فما أن غادرناه بقليل من الوقت حتى رأينا جماعة من عساكر المسلمين، قد سحبوه خلفهم مخفورا، إذ كانوا يجدون في القبض عليه، بينما كان متخفيا في هيئة شحاذ.

ويبدو أن كثرة تجوال أبانوب، كانت السبب في إلمامه بأمور كثيرة، فهو يبيع البخور والعطورات في كثير من الأمكنة، كما أنه يزود البيع بما تحتاج من البخور لزوم الخدمة الكهنوتية بها، ولذا فهو كان بسمنود ليقدم لبيعتها ما ينقصها من بخور الميعة والسندروس وغيرها، كما أنه يتردد على بيوت

الأكابر ومساتير الناس بالكور والبلدات، وكذا كل من فتح عليهم الرب بنعمته، لتقديم كل جديد ثمين من عطورات نادرة مجلوبة من بلاد بعيدة جدا، كبلاد الصين، إضافة إلى ما يستجلبه من بلاد الأحباش واليمن، وقد أطلعني معه على عطر عجيب ، فلما شممته استشعرت وكأنه من عطور الفردوس والنعيم، فلما رأي أبانوب انسحاري به بعد أن صليت وسبحت الرب، قال، إنه عطر يسمى مسك الغزال، وهو باهظ الثمن، لأنه لا يصنع من الورود والرياحين، ولكن من غدة ربانية أوضعها الرب في جسد نوع من ظباء الجبل، موجود ببلاد اليمن السعيد، وهو يعز وجوده في بقع أخرى من بقع المعمورة.

كان أبانوب إنسانا لطيف المعشر واسع المعرفة على هيئة محببة، فهو ورغم دكونة بشرته، فإنه كان حلو التقاطيع، باسم الثغر دون الانتقاص من رجولته الظاهرة، ولكن خلال مدة ارتحالي معه، أدركت أن إيمانه، تشوبه الشوائب، فهو لا يصلي إلا فيما ندر، كما أنه قال، عندما كنت أناقشه في شئون العقيدة، أن الملكانية وغيرهم من أتباع الكنائس الأخرى، مؤمنون مثلنا، ويجب التسامح معهم، فالمهم أن يعتقد الإنسان في الرب، ويؤمن به والبشر صنوفهم كثيرة، وقلوبهم مختلفة، وسبلهم في الحياة منوطة بأحوال وظروف تتخالف وتتباعد، وما يهم فيهم هو أعمالهم وما يكون خير منها وغير مؤذ للبشر، وليس به ما هو موجد للبغض والخصام.

وقد أدركت أن إيمان أبانوب ليس نقيا خالصا، عندما أعلمني أنه متزوج من امرأتين، تعيشان معه تحت سقف واحد، وأنه كانت لديه سرية إبتاعها من المدينة العظمى التي هي الإسكندرية عندما ذهب إليها ذات مرة، من سوق النخاسة الموجود بهذه المدينة، لكن السرية ماتت، إذ كانت مخطوفة من بلاد الروم وكانت بيضاء مليحة، لكن الحسرة لم تفارقها لبعدها عن بلدها.

ولما لم أكن أعرف إلا القليل عن مدينة أون التي يقطن بها أبانوب، فقد قال لي لما سألته مستفهما عنها، أنه ولد بها بعد أن نزح أبوه إليها وهو كان تاجرا قبله للبخور والعطورات، من مدينة بعيدة تقع في أعلى الأرض تسمى قفط، يعيش بها كثير من العرب منذ قديم الزمان، وأن أمه كانت جارية حبشية في الأصل لذا فهو داكن البشرة رقيق الجسد مثلها، وله حظ من فراعة الطول، وهي لم تكن تدين بدين في الأصل، لكنها عندما تزوجت من أبيه، دخلت في ملة المسيح مثله، وصارت تتردد على البيعة في أيام الآحاد.

كنت أعرف أن هذي المدينة كانت منها زوجة يوسف بن يعقوب وأن أباها كان كبير كهانها في الزمن القديم، وتسمى إسنات، مثلما تخبرنا أسفار العهد القديم، لكن أبانوب، أخبرني - والرب أعلم - أن أون كانت مدينة عامرة

في الزمن العتيق، وكانت بها الصروح المشيدة، والملاعب الكثيرة، وأن أحد حكمائها وهو هرمس مثلث العظمات، كان أول من تكلم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجد الرب لها، ولكن المدينة في زماننا هذا، وكما أضاف أبانوب، لم يعد لها من البهاء القديم شيء إنما هي قليلة العمائر، بها أطلال من مجد سابق، وقد لحق معظم عمائرها دمار ماحق، بسبب الإغارات والغزو على مدى الأيام، وأن حصنها القديم المتهدم، باتت تكمن عنده جماعة من العرب البدو قبل دخول عمر إلى مدينة مصر، ويقال إن بعضهم ساعده وقت دخوله، وساروا معه حتى موضع يسمى المقس، قبل حصاره لمدينة مصر في بابليون.

دعاني أبانوب لأبيت بمنزله عند وصولنا إلى مدينة مصر، والذي كان أمرها قد تخالط عليّ، فلم أعد أعرف الفارق بين مدينة مصر، ومدينة عون فلما سألت أبانوب قال إنه سمع من أبيه مرة أن مدينة عون كانت ممتدة وكبيرة، وتصل إلى موضع حصن بابليون، وكانت بها حتى ذلك الحصن، أماكن عامرة بالناس وبساتين الفاكهة، كما أن بها ديورة وكنائس كثيرة مازالت بعضها يوجد حتى وقتنا هذا، وبها معاصر للنبيذ والزيت الطيب، ولكن وخلال هيمنة المجوس عليها والذين هم الفرس، وذلك قبل أن يدخلها عمر والعرب بسنوات قليلة، تلف أكثر هذا وضاع كما أخبره أبوه.

كان ما يعنيني من كل هذا، هو أن أقف على البرية القديمة في هذه المدينة، عليّ أعثر على بعض الكتابات المفيدة والمدونة على الأوراق أو الرقوق، فربما تعينني على فك طلاسم ذلك الوباء الفتاك، أو أي أوبئة أخرى يعاني منها الناس ويرسلها الرب بين الحين والحين ليذكر الناس بخطاياهم وآثامهم.

سألت أبانوب:

- هل تظن وأنت الخبير العليم بموضعك هذا، أنه بقي ببرباها شيئ من رقوق، أو أوراق قديمة، يمكن العثور عليها هناأو هناك؟

قال أبانوب، إنه لا يعرف شيئا عن هذا، لكن المعبد، قد خرب منذ زمن بعيد، وسرقت أوانيه ونفائسه من الفضة والذهب وغيرها، كما أن الفرس في زمن واحد من ملوكهم يدعى قمبيز، هدم الكثير من جنبات المعبد ، انتقاما من آلهة مصر في زمن قديم، واقتاد كهنة ذلك المعبد، العارفين بالطب والعلوم الفلكية وفنون السحر معه عند خروجه من البلاد، وكان ذلك مُنتهى البربة، التي مازالت بعض من حجارتها قائمة حتى الآن، وقال إن أباه كانت لديه حكايات كثيرة عن هذا لأنه كان ملما بقلم قديم يقرأ به الكتابات المصورة على الجدران وأحجار هذه البربة.

كنا جالسين نأكل على الأرض طعام العشاء وقد وضع أمامي أبانوب طبلية عامرة بصنوف الأكل، من فائض كرمه وحسن ضيافته، لكنه قال فجأة:

- تعال .. سأريك شيئا.

ثم إنه حمل السراج وقام فقمت معه، حتى وصلنا إلى حجرة دخلناها، وكان بعض من عياله نائمين بها، ثم إنه قرب السراج إلى حجر في مبتدأ جدار من جدرانها وقال:

- انظر، هذا حجر من أحجار هذه البربة القديمة، لقد استعان معظم الساكنين في بقعتنا هذه بهذه الأحجار، ليبنوا بيوتهم، وكذا فعل ناس كانوا يأتون من مدينة مصر ويحملون هذه الأحجار لبناء منازلهم، وحتى الكنائس والديورة، بني بعضها من هذه الأحجار، لقد بنيت هذا المنزل بكثير من أحجار هذه البربة لأنها قريبة مني.

صلبت وأنا أرى علي ضوء السراج الوافر تصاوير ملونة لطيور وحيوانات، وهيئات بشرية تعلو رءوسها أقراص الشمس، وقد رفعت ذراعيها لأعلى وكأنها تتعبد وتتضرع سبحت بينما تابع أبانوب.

- ولا أخفي عليك، وحتى زماننا هذا، كنا نجد رمم موتى في لفائفها داخل البربة، لكن لم أسمع عمن وجد شيئا ثمينا كذهب أو فضة أو غيره من جوهر ثمين.

ثم قال أبانوب إنه لا يعرف شيئا عن وجود رقوق وأوراق قديمة، لكنه يستطيع أن يستعلم عن هذا، لأنه يعرف واحدا من جماعة، يعرفون الكثير عن تلك البربة القديمة، وهم يعيشون في موضع قريب من الأهرامات العتيقة، وهم يزعمون أنهم مسلمون، وأنه لا يعرف إن كانوا كذلك أم لا، لأنهم لا يشبهون المسلمين في طقوسهم وصلواتهم وعاداتهم، وأنهم ما فتئوا يزورون البربا بين الحين والحين.

في الصباح وعندما انتهيت من صلواتي الواجبة بعد أن أفقت، جاء أبانوب بعياله ليحيونني، وأباركهم، وبينما كان صبي منهم يقبض على كفي ويقبلها، شعرت بأن قبضته القوية إنما هي قبضة رجل بالغ شديد البأس، تعجبت من ذلك وسألت:

- كم يبلغ عمر ابنك هذا يا أبانوب؟

- آه. تقصد زخاري. لم يكمل الثانية عشرة بعد.

- ما شاء الرب، إنه عفي، قوي.

كان زخاري هذا ذا هيئة مختلفة عن إخوته الذين تتراوح ألوان بشرتهم بين السمار والدكونة، إذ كان أبلقا شديد البياض وكأنه أبرص بلا رقع، وكان شعره أبيض كذلك يلتمع كسلوك من لجين، وكذا رموش عينيه.

كان بالمجمل أشهلا، ويبدو أن تعجبي من ذلك قد وضح على وجهي، لأن أبانوب بادرني بقوله:

- يصعب أن يصدق أي إنسان، إنه ابني ومن صلبي، إنه ابن دافنة الرومية، هو يعاني من الظهور في النور والنظر إلى قرص الشمس، أتمنى على الله أن يخلصه من هذا وتكون هناك علاجات لما يعانيه، لكن الغريب أن بهذا الصبي قوة منذ مولده وهو يستطيع حمل أثقال لا طاقة لرجل متين البنيان بها، ثم إن جسده طوع له، فهو يستطيع أن يثنيه ويفرده في أوضاع شتى، كما يمكنه من الثبوت على قمة رأسه مقلوبا ما يزيد على الساعة، وهو مولع بالحواة وأهل الحرف، وذهبت به ذات مرة إلى سجن يوسف بالجيزة، فلما رأى الذين خرجوا بالخيال والملاعب والسماجات طار عقله وأراد مشاركتهم في المشي على الحبال مثلما يفعل بعضهم، لكني خفت عليه ومنعته، إذ كانت الحبال منصوبة عاليا، وخشيت وقوعه للأرض فتنكسر رقبته.

قلت وأنا أصلب:

- إن بابنك قوة جسمانية أودعها الرب فيه دون سائر إخوته، لكنه يحتاج قوة إيمانية تكرس بداخله، تحميه من الاندفاع والوقوع في الشر وأذية الناس. كرسه للبيعة ولسوف يأتي لك من وراء ذلك خير كثير.

لم يجادلني أبانوب في ذلك، بل اكتفى بأن هز رأسه وابتسم ثم إنني رقيت أولاده بالآيات الإيمانية الحافظة، ودعوت الرب أن يباركهم ويشملهم برعايته ويسدد خطاهم لطريق الحق والصواب.

ذهبنا إلى البربة وقت العصر، فلما عاينتها وجدت أطلال صرح محوط بسور مهدوم في أكثر من موضع، غير أن عدة أصنام هائلة عظيمة الشكل، من نحيت الحجارة، كانت لا يزال بعضها واقفا منتصبا، وبعضها كان ملقيا على الأرض، وقد تكسر شيء من أعضائه، كرجل أو رأس، وكان طول الصنم وحسب ما خمنت يقدر بثلاثين ذراعا، وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم، فلما رأيتها أطرقت خاشعا، ودعوت الرب أن يغفر لي دخولي هذا المكان، وإن كان هاتف يهتف بنفسي، أني ما فعلت ذلك إلا لأجل النفع والخير للمساكين الذين هزمهم الوباء.

كنت مأخوذا دهشا عند معاينتي ذلك، خصوصا أن هذه الأصنام كانت قائمة على قواعد، وبعضها قاعد على نصبات عجيبة واتفاقات محكمة، بينما كانت حجارتها تتسربل بتصاوير في بعض مواضعها، بعضها على هيئة إنسان وبعضها على هيئة طير أو حيوان، وكان كل ذلك ضمن كتابات بدت لي وكأنها إنما هي بالقلم القديم المجهول.

أما أعظم ما رأيته بهذه البربة المهدمة، فكانت مسلتان قائمتان غاية في الطول، وصفة المسلة قاعدة مربعة، قدرتها بالتخمين بنحو عشر أذرع في مثلها عرضا في نحوها سمكا، قد وضعت على أساس ثابت في الأرض، ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله - مثلما قدرت - على مائة ذراع، يبتدي من القاعدة ببسطة قطرها خمس أذرع وينتهي إلى نقطة، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاث أذرع منها كالقمع، وقد تزنجر بالمطر وطول المدة، واخضر وسال من خضرته علي بسيط المسلة وكانت عليها كتابات بذلك القلم المصور المندثر أيضا. وقفت مبهورا متعجبا، وأنا لا أتوقف عن التصليب، وتلاوة الآيات الإيمانية، فلما وجدني أبانوب واقفا على هذي الحال قال:

- أرأيت أيها الأب كيف كان بناء الأقدمين، فإذا كان وهو بهذه الحال المتهدمة يأسر النفس، فما بالك أيام كان صرحا مكتملا لا نقص فيه؟

رحت أفكر فيما قاله أبانوب، وفي هذى المدينة أون، وكذا أمر من كانوا يعيشون بها. كنت أفكر في الزمان وكيف يدور فتذهب حياة وتأتي حياة، وكل أولئك الذين بادوا بعد أن شيدوا ونحتوا، وأقاموا هذه الهياكل والتماثيل، وكيف أنهم لم يهتدوا إلى الرب الواحد الأحد.

عبرت عما دار بداخلي لأبانوب فقلت :

- أليس عجيبا أن يكون الإنسان لديه من الفهم والتدبير والنظر في العلوم مايعينه علي تشييد هذه الصروح والمسلات والتي ما كان يمكن عملها إلا بحساب ومقدار، بينما هو لا يستطيع أن يهتدي بعقله هذا إلي وجود الرب الواحد الأحد أليس هذا غير مصدق أيها الابن الطيب؟.

تنحنح أبانوب قليلا وبدا مترددا، وكأنه لا يرغب في مضايقتي أو إزعاجي قبل أن يقول:

- بالطبع يا أبتاه. ولكن الحق أقول لك، إن الرجل الذي أعرفه ويأتي مع بعض من جماعته هنا، ويقول إنه مسلم، قد قال لي ذات مرة إن من كانوا هنا، وبنوا ذلك الصرح منذ سحيق الأيام، كانوا من المؤمنين، الموحدين، المعترفين برب لا شريك له، ويقول إن قومه لديهم أوراق قديمة يتحفظون عليها، تقول بذلك.

- كنت مبهوتا بما قال، فهذا الكلام لم أسمعه أو أقرأ عنه من قبل، وبت مقتنعا أن هناك من ملأ رأس أبانوب بترهات غير إيمانية، وتخليطات قد تكون وثنية، لكن لما كنت مهموما بالعلاجات ساعيا إلى إيجادها

قبل أي أمر آخر، وعندما أدركت أنه من المستحيل أن أجد بهذا المكان أي رقوق أو قراطيس، تفيد فيما أبتغيه قلت لأبانوب:

- ولكن هذا الرجل الذي يمتلك قومه الأوراق القديمة، هل هو يعرف طرفا من امر هذه المدينة، وهل يذهب إلى برابي أخرى في مدينة مصر؟. لماذا لا تأخذني إليه فأحادثه، وقد أجد لديه ما يعينني على علاجات للوباء.

مط أبانوب شفتيه الممتلئتين قليلا، وهرش لحيته قبل أن يرد قائلا:

- أخشى إن أخذتك إليه، أن يحدث ما لم تحمد عقباه. توجس قلبي قليلا، وكدت أن أستفسر عن معنى ذلك لكنه واصل كلامه قبل أن أنطق:

- أظن أن هذا الرجل وقومه لا يحبون أهل المسيح كثيرا، فلقد رأيتهم يتشاجرون ذات مرة مع جماعة من الرهبان، كانوا يتعبدون بدير قريب من موضعهم، ولقد اتهمهم هؤلاء الآباء المبجلون بالكفر والوثنية، ولكن تدخل العربان في النهاية للحيلولة بينهم وبين الاقتتال حتى مال كل طرف إلى السكينة والسلم مرة أخرى.

الحق أقول أن كلمات الرجل نبهت فضولي المكبوت وأشعلت جذوة الرغبة إلى كل معرفة كانت قد كمنت بداخلي، فباتت معرفة ذلك الرجل وجماعته الغريبة وما كان من أمرها، مسألة لا تقل عندي عن رغبتي في الوصول إلى علاجات ناجعة لذلك الوباء اللعين، قلت بينما أزدرد ريقي، وأتأمل تصاوير قلم قديم محفورة على حجر أمامي ولا أستطيع قراءتها وفهمها:

- خذني إليه يا أبانوب، ولسوف يقع معه كل خير، فأنا سألاينه الرأي ورحت أتأمل التصاوير مرة أخرى، وأنا أتساءل بداخلي:

- يا ربي.. لماذا أعجز عن قراءة لغة الجدود القدامى هذه؟

الجسد قميص الروح

الحرانية

في اليوم التالي لذلك، اتخذنا ركائبنا وسرنا مخترقين دروب قرى صغيرة، وغيطانا مزروعة بجملة محاصيل، حتى وصلنا إلى موضع يسمى شبرو باللسان القبطي، كما أخبرني أبانوب، وهي بلدة وكما افتهمت منه كانت موجودة منذ الزمن العتيق، وأنه بعد دخول العرب المسلمين إلى البلاد، صارت تعرف بشبرا المكاسة لأن خيمة المكاسة وتحصيل المكوس من الحاكم للبلاد كانت تتم عند شواطئها، لكن أغلب الناس درجوا على نعتها باسم شبرا الشهيد، إذ أن بها كنيسة قديمة، يحتفظ فيها بصندوق من الخشب، وضع بداخله أصبع من أصابع آبائنا الشهداء الأوائل، فإذا كان ثامن شهربشنس القبطي، يخرجون تلك الأصبع المباركة من الصندوق، وتغسل في النيل، فيزيد النيل ويفيض ماؤه، ويسمى ذلك اليوم الثامن من بشنس بعيد الشهيد، فتنصب الخيام لمدة أيام ويمكث الناس فيها على اختلاف طبقاتهم ويكون احتفالا عظيما، بين أكل وشرب، ورقص ولهو،

ويظل القساوسة يتلون الآيات المباركة طوال الليل على ضوء الوقائد والشموع، ويكون بشبرا هذه فرح عظيم، فيركب الناس القوارب، وبعضهم يسبح في اليم، ولا ينقطع الغناء ليلتها ولا يتغيب طفل أو شيخ أو امرأة إلا من أقعده مرض، أو أصابته مصيبة تمنعه من الحضور.

بدت لي شبرا هذه،ورغم قلة البيوت والمباني بها، كواحدة من أجمل البقع التي رأيتها، إذ كان النيل الواقعة عليه ممتدا فسيحا، وكانت متنزهاتها البادية للبصر، خلابة المنظر وكأنها جنات عدن ذاتها، ولم أكن قد رأيت منظرا أحسن من هذا. صلبت بينما أسبح بحمد الرب وقلت:

- ولكن على البعد، تتبدى بعض البقع الظاهرة، بين السبخات، والماء الغامر، لا أدري كيف يكون انتقال الناس منها إلى بحر النيل؟.

رد أبانوب بسرعة، وهو الرجل الخبير في التنقل والتسفار؟

- إن النيل يطم طما كبيرا بين سنة وأخرى ويرمي بطميه في مواضع كثيرة فتتشكل هذه البقع من الأرض ولكن أعلم أن الماء المحوط كبير متسع ويصل إلى ما عند الموضع الذي استولى منه العرب المسلمون على مدينة مصر وهي قرية صغيرة كان اسمها الرومي تندونياس، وسميت بعد ذلك المقس، لأن العرب عندما استتب لهم

أمر البلاد، كانوا يوزعون غنائمهم عندها، ثم إن جابي المكس يقعد عندها لأخذ رسوم على الوارد الى البلاد من المأكولات وغيرها عن طريق سفائن النيل ومراكبه.

ركبنا من شبرا الشهيد مركبا، بعد أن ساوم أبانوب نوتيا في الأجرة، ويممنا وجهينا صوب الجنوب. كان الرجل أبانوب قد تحمس كثيرا عندما سألته الرحيل لملاقاة ذلك الرجل لأن له دينا يخصه عنده، مقابل بضاعة كان قد ابتاعها منه منذ مدة، وهكذا بقينا بالنهر ما يقارب الساعة، حتى وصلنا إلى بر الجيزة، والتي كنا كلما نقترب منها تتوضح لنا هيئة أهراماتها العجيبة، وقد شمخت في الفضاء الممتد متجاوزة عنان السماوات الزرقاء فوقها.

خلال ذلك كنت وأبانوب نتجاذب أطراف الحديث، بينما أرقب أجمات الأشجار، والعشب العالي المتناثر على الشاطئين هنا وهناك، بينما نبات البشنين، يطفو على سطح الماء بزهوره الزرقاء الجميلة، كان المنظر آسرا، وآية من آيات الرب المتجلية على الأرض في هذا المكان.

حدثني أبانوب عن ذلك الرجل المتوجهين لملاقاته، فقال إنه، ورغم اشتغاله بالسحر والتنجيم، فإنه قويم الخلق، طيب السريرة، وأنه جربه مرة بخصوص تجارة كانت قد كسدت له، فصدق قوله في أمرها، فبعض

أن قرأ قراءات سحرية، وأجرى حسابات فلكية، وقرأ طالعه، أفاد بأن ذلك إنما كان بسبب تدليس بعض الحقاد والحساد من التجار المنافسين له، إذ إنهم خلطوا بعضا مما يجلبه من بخورات بحجارة مدقوقة وأعشاب سمية وما شابه ذلك، وذلك عن طريق غلام تابع له، وهيأوا له الخيانة، وأضاف أبانوب أن كثيرا من الناس يؤمون ذلك الرجل قادمين من قراهم وبلداتهم المجاورة، ليسألوه عن مسائل تخصهم ويفتيهم عن حلول لها بمعونة السحر، وحسابات البروج والأفلاك.

وصلنا بالنهاية، وبعد أن تركنا النهر، إلى موضع ذلك الرجل راكبين الدواب مرة أخرى. وهي مجموعة من البيوت الصغيرة المتقاربة والمتشابهة قليلا من حيث بنائها عن بيوت الفلاحين الطينية، وأخبرني أبانوب كذلك، أن هذا المكان سُمي باسم جماعة ذلك الرجل التي تسمى الحرانية، والتي لا يعرف أحد في أي زمن جاءوا ومن أي مواضع المعمورة، وأن تلك الجماعة لها اعتقاد عظيم في النجوم والكواكب السيارة، ولهم علوم وفنون، وأنه يبيعهم البخور والعطورات، وهذا سبب معرفته بهم، وأن صاحبه الذي سوف نلتقيه، يعتقد أن أصولهم القديمة إنما هي من مدينة أون، ولهذا فلهم اعتقاد كبير بها، وأن الرجل يأتي إليها في بعض الأحيان مع بعض من جماعته فيمكثون وقتا يتأملون الأصنام، ثم يفتشون في خرائبها، لكن فعلهم هذا قل في الآونة الأخيرة

بسبب تشدد العرب المسلمين، وهدمهم كثيرا من الأوثان في كثير من البرابي والمناطق العتيقة الأخرى، وأضاف أن هذا الرجل مولع ببعض التمائم والرقي والأصنام الصغيرة جدا، التي كان يجدها بكثرة الحفر والنبش. ثم إن هؤلاء الحرانية – وكما يرى أبانوب – مسالمين لا خلطة لهم بمن حولهم إلا للضرورة، وهم يمضون إلى شئونهم في هدوء، لكنهم صناع مهرة أيضا، يجيدون صياغة الحلي من الذهب والفضة، ويبيعونها لفلاحي المزارع والقرى المحيطة بهم، وأنهم مولعون بالبخور وصنوفها بسبب تقديسهم للكواكب والنجوم، ولكل كوكب ونجم مجمرة من طين أحمر خاصة به، ولها بخور مفرد فالتي للشمس العود، والتي للقمر الكلبة، والتي لزحل الميعة، والتي للمشترى العنبر، والتي للمريخ السندروس، والتي للزهرة الزعفران، والتي لعطارد المصطكي، وفي سبيل ذلك يبذلون الأموال لشرائها.

لم أكن أدري من أمور الحرانية هؤلاء – أي شيء من قبل – فتعجبت لاهتمامهم هذا بأون، فلما التقيت ذلك الرجل في نهاية الأمر، بات متحفظا معي، متفرسا في ملامحي وفي ردائي الكهنوتي، ثم بادرني بعد أن حياني بجملة سؤالات عن أي كنيسة للرب أنتمي، ولأي غرض التقيه، وسبب قدومي إلى مكانه هذا ،فلما أجبته بالصدق مفصحا عن مرادي من السعي والتجوال، بحثا عن طبابة قد تكون للأقدمين، شافيه

للوباء الساري بين الناس، بدأ يحدثني بارتياح وطمأنينة ويسهب القول بمودة وإقبال، فأخبرني وكنت قد علمت أن اسمه قسطا وذلك عندما ناداه أبانوب في أثناء دخولنا عليه في موضعه، أن أون لها منزلة خاصة عند جماعته التي تعتقد أن جذورها إنما كانت منها وأن هياكلها القديمة المقدسة، إنما كانت مبتدأ إيمان ملته، وأن الهياكل وضعت في غابر الزمان بأون، ورغم إدراكي من خلال ما قاله وما سمعته منه بعد ذلك، بأن معتقد جماعته فاسدووثني، إلا إنني كنت متشوقا لمعرفة المزيد عن أون، فقال إن هذه الهياكل كانت عدتها أثنى عشر هيكلا، وهي هيكل العلة الاولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة، وهيكل النفس ، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات، والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشترى وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضا مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل، وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل وهيكل القمر مثمن.

وعلل الرجل عبادة أهل أون للهياكل بأن قال إنهم قالوا إنه لما كان صانع العالم مقدسا عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، وتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقربين لديه وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم، ويكونون وسائط لهم عنده، وأن المعنى بالروحانيين هم الملائكة،

كما أن المدبرات للكواكب السبعة السيارة هي هياكلها، وأنه لابد لكل روحاني من هيكل، ولابد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحاني إلى الهيكل، كنسبة الروح إلى الجسد.

كانت تثور بداخلي أسئلة كثيرة بينما هو يحكي عن عبادة أهل أون القدماء، وكنت أرغب في دحض أكثر ما قال إذ اعتبرته ضربا من التجديف الوثني، لكني تمالكت وآثرت السكوت، خصوصا وقد لاحظت أن أبانوب بدا ممتقع الوجه، زائغ النظرات، وكأنه يخشى أن أحتد على الرجل وأخاصمه الرأي ولا أكبح غضبي بسبب ما يقول، لكني آثرت ضبط النفس وتركته يسترسل بقوله:

- وزعموا أنه لابد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم، حتى يتوجه إليه العبد بنفسه ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات فعرفوا بيوتها من الفلك وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالي والساعات، والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو معروف في موضعه من العلم الرياضي، وسموا هذه السبعة السيارة أربابا وآلهة، وسموا الشمس رب الأرباب، وزعموا أنها المفيضة على الناس أنوارها والمظهرة فيها آثارها، فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

بهتت بعد أن أنتهى، وتكاثرت الأسئلة على لساني وأنا أتأمل عينيه الضيقتين وشعره الطويل المضفور ضفيرة خارجة من تحت غطاء رأسه المخالف لغطاء رأس العرب المسلمين والواصلة إلى رقبته، فقلت:

- ولكن كيف عرفت كل هذا أيها السيد الكريم؟ وما علاقة ذلك بما تعتقدونه الآن؟ و...

- قاطعني قبل أن أسترسل بالأسئلة:

- هذا مسطور منذ القديم، ولدى آباؤنا كتب محفوظة عن ذلك ومكتوبة بأقلامهم الأولى، وكذا عن العلماء والحكماء والفلاسفة الذين نجلهم وكانوا يتعلمون الحكمة بها وعاشوا بين هياكلها، حيث كان كهنتها يتدبرون أمر الكون وصانعه.

كنت قد تربيت ومنذ صغري في البيعة على كراهية الفلسفة وتخرصات الفلاسفة، فأقوالهم الوثنية إنما كانت بسبب تسلط الشياطين عليهم، وعندما صرت راهبا بدير مريوط، كان مسموحا لنا قراءة فلاسفة الديانة المؤمنين من آباء الكنيسة الأولى، والذي عاشوا في المدينة العظمى التي هي الإسكندرية، ولقد تيقنت ومن خلال ما قاله ذلك الرجل ، أن أبانوب كان مخطئا، فالرجل ليس مسلما، وأهل الإسلام لا يقولون ما يقوله، ولا

يؤمنون بها يؤمن به، ورغم ذلك، كان بي فضول عارم كي أعرف المزيد عن معتقداته وفلاسفته المقدسين فسألته:

- عن أي فلاسفة تتحدث يا سيدي؟

- عن المبجل فيثاغورث يا سيدي، والذي لما أشتاق للاجتماع بكهنة عون، وورد عليهم من بلاده التي هي بلاد الإغريق، قبلوه قبولا كريها، لأنهم كانوا يرون أن هؤلاء الإغريق أطفال عليهم في الفلسفة والعلوم، وظلوا يمتحنون فيثاغورث زمانا، فلما لم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا، وجهوه إلى كهنة منف، كي يبالغوا في امتحانه، فلما لم يجدوا عليه، ولا أصابوا له عثرة، ظل يعرض ذلك الحكيم على كهان المعابد وهم يفرضون عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضونه ويحرمونه طلبته، مخالفة لفرائض اليونانيين فقبل ذلك وقام به، فأشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعه، حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر وقتها، فأعطاه سلطانا على أضحيات الرب، وعلى سائر القرابين، ولم يكن ذلك يعطي لغريب قط.

إن هذا الحكيم نتمثل به وبحكمته ونعتقد فيها كتبه وقاله عن الجسد والروح، أو ليس هو من قال الجسد قميص الروح؟ بيد أن غيره من الحكماء والعلماء، جاءوا إلى مصر كذلك، أو كانوا ممن نعتقد فيهم ونؤمن

بهم، ففيثاغورث جاء إلى موطن أجدادنا بحران السورية، وعلم وحدثنا عن كثير من أسرار الكون وخالقه مثلما تعلم من كهنة مصر، ونحن ندين بأصول ديانتنا لتلك التعاليم التي أرساها ذلك الرجل الحكيم بعد أن تعبدفي مصر وأدرك جماعات العرفان التي نشأت في بادئ أمرها بالإسكندرية، وكانت تأتي للعبادة هنا داخل سراديب معابد سقارة ومنها المعبد الكبير المسمى السرابيوم.

- وهل لجماعتك أنبياء أيها الحكيم. سألت.

- لا .. لدينا فلاسفة منا مثل برديصان، وهو من أجل الحكماء الذين تكلموا في الجواهر العلوية، وتأثيرها على العقل والنفس.

عندما نطق الرجل باسم برديصان، أدركت أنه ينتمي لجماعة وثنية مارقة، فبرديصان هذا، وكما تعلمت من ديرنا في وادي النطرون عن البدع والهرطقات، أنه كان آراميا، ولد بموطن من مواطن بلاد الرافدين تسمى الرها، ثم إنه تنصر عندما شب في بلاط ملك من ملوك تلك البلاد يسمى معنو الثالث، ثم تهور وتهرطق فأبسلته البيعة وطردته من نعيم اللاهوت، وذلك بسبب معتقداته الوثنية الفاسدة، إذ كان يعتقد في الكواكب والنجوم ويتشدق بتأثيرها على العقل والنفس والجسد، ويفتن المؤمنين بأقوال عن هذا، وعن أمور أخرى.

لم أكن منتويا مناقشته في الديانة، ولا التجادل معه، مثلما وعدت أبانوب، وحتى لا يحدث ما لن يحمد عقباه، خصوصا في أيامنا هذى، حيث تسيد العرب وتزايدت قبضتهم على البلاد وهم يراقبون أي مشاحنات بخصوص العقائد، لذلك اكتفيت بأن أستفسر منه:

- وكأنكم اخترتم هذا الموضع تحديدا لأمر يتصل بعقائدكم ودينكم؟

- أجل أيها الأخ الكريم،فنحن اخترنا أن نكون إلى جانب الهرمين وبالقرب من معابدهما حيث كان الأجداد يتعبدون فيهما، فنحن على ملة إبراهيم الذي هبط إلى مصر وتزوج منها.

صلبت رغما عني وأنا أتنهد وسكت دون أن أنطق بما يعتمل في صدري، وبينما نحن كذلك جالسين، إذ دخلت علينا امرأة شابة يتبعها يافع أصغر منها، ثم إنها حيتنا وتوجهت بالكلام إلى قسطا قائلة:

- أريدك أن تسحر لي سحرا يعيد رجلي إليَّ، فلقد غادر البيت منذ شهرين، تاركا اولاده الصغار، وأنا بلا حول ولا قوة.

ووضح الشاب قائلا:

- إن أختي ستدفع لك قدحا من البر، فهي لا تستطيع أن تقدم لك أكثر من هذا.

قال قسطا:

- إن استطعت أن تجلبي لي ديكا أسود اللون فهذا سيكون أفضل.

كدت أتدخل وأقول للشابة، حاشا لله يا ابنتي أن تنفع مثل هذه الأمور في استعادة زوجك الغائب، لكن صلي واستغفري وادعي الرب، وتشفعي بالقديسين، فيعود إليك وإلى أولاده ذلك الشارد البعيد، لكن أبانوب نظر إليّ نظرة فحواها أن اسكت فلم أنطق، بينما قال قسطا:

- واجلبي لي هدهدا كي أكتب لك بدمه ما يعين على عودته إليك بحق هرمس المعظم ثلاثا، هل قلت لي اسم زوجك الغائب؟

- حرحور بن مينا.

ثم إنها وأخاها استأذنا وذهبا مسرعين، متذرعين بقرب دخول المساء.

سألت قسطا: ما الذي سوف تخطه لهذه المرأة المسكينة بدم الهدهد.

قال:

- سأكتب لها تعويذة شافية مجربة، مأخوذة عما هو مدون بصحف الأقدمين تقول:

- يا حور: اجعل حرحور ابن مينا يتبعني، كما يتبع الثور علفه، أو القطيع راعيه، وسرب البط قائده.

صلبت مرة أخرى واستغفرت الرب رغما عني بعد أن سكت الرجل، وسكت أنا، ثم غادرنا ، إذ جاء من نادى عليه ليخرج، فقلت لأبانوب:

- إنهم جماعة لا تعتقد في السيد، ولا تؤمن بالتثليث مثلنا، هل تعرف شيئا عن طقوسهم وكيفية صلواتهم. لماذا طلب الديك؟ ابتسم أبانوب ابتسامة لم أفهمها، وشعرت وهو يزيح عمامته قليلا ويهرش رأسه، وكأنه مسرور مما حكاه الرجل، ثم قال:

- إنهم يتكتمون في طقوسهم وصلواتهم كثيرا، لكنهم طيبون وتجارتي معهم لا تشوبها شائبة، أظن أنهم يستخدمون الديكة في أضاحيهم.

عاودت سؤاله: - وهل يذهبون إلى مغارات السرابيوم، التي أشار إليها؟.

- في الحقيقة لا أعرف،

قال، ثم زاد:

- لكني سمعته ذات مرة يتحدث مع واحد من العرب القادمين من بغداد للفرجة والسياحة، وكان قد ذهب لر ؤية السرابيوم هذا

ومغاراته، فقال إن كثيرا من أصحاب العرفان القدامى، والذين كانوا يعيشون في الماضي قرب صحراء الإسكندرية ومريوط وهم كانوا من لابسي البياض والمتطهرين بالماء، كانوا يأتون إلى السرابيوم ليتعبدوا، وكان هؤلاء جلهم من الأطباء الحكماء المعالجين للناس بلا مقابل.

ويبدو أنه حاول أن ينهي الكلام فاقترح فجأة:

- لماذا لا تذهب إلى بربة منف؟ إن ثمة بقايا من بقاياها قائمة حتى الآن، لعلك تجد بها رقوقا او كتابات على ما كان يصنع قديما من أوراق البردي، فمنف على مسيرة ما يقل عن ساعة من هنا. إذ رغبت بذلك، فأنا يمكنني أن أواصل معك المسير إليها، فأنا أعرف بعض الناس بها، وبيني وبينهم معاملات، وتجارة أيضا.

لا أعرف لماذا داخلتني سكينة عندما قال هذا، وشعرت وكأن أمرا قدر لي بذهابي معه. هززت رأسي دون تردد او أدنى تفكير وأنا أقول لنفسي متمتما:

- على بركة الرب، فلنذهب يا عزيزي إلى بربة منف.

«وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى»

منف

لم تكن المسافة بين الحرانية ومنف ببعيدة، إذ قطعناها على ركائبنا في نحو الساعة. كانت الحقول ممتدة أمامنا على مرمى البصر، وقد تذهبت خلال ذلك الوقت من شهر أبيب المبارك بسنابل القمح، وكان مشهد الأهرامات لا يفارقنا طوال الطريق، فبالإضافة إلى الهرمين الكبيرين، كانت هناك أهرامات صغيرة تستبين بين الحين والحين، وكنت أصلب كلما حدت ببصري عن الطريق وتطلعت اليها متعجبا، ويبدو أن أبانوب لاحظ انشغالي بالتفكير في ذلك، فقال وهو يرفع يده باتجاهها ملوحا:

- دائما ما أتسلى بعد الأهرامات كلما ذهبت إلى منف. لقد عددت في أحد المرات ما يزيد على خمسة عشر هرما. إن عجائب الأقدمين وقدرتهم تجلت في هذه الشوامخ التي يمكن للمرء أن يراها بسبب علوها من مناطق بعيدة جدا. إن الحقول التي تمتد بالقرب منها،

دليل واضح على أن الناس عاشوا بالقرب منها منذ دهور ممتدة. لطالما تساءلت عنها كثيرا، وقلما أجد من يعرف العلة من بنائها، أو يعرف كيف بنيت، لكن بعض من عاشوا في منف أبا عن جد منذ سنين بعيدة، قالوا إنها ربما كانت مراصد لكهان الوثنية الأولى، وأنهم كانوا يرصدون من عندها حركات النجوم والكواكب.

ثم إنه تساءل فجأة:

- ألا يوجد بديانتنا ذكر لها.. ألم يذهب إليها السيد مع السيدة الطاهرة عندما كان طفلا صغيرا وقد هربت به أمه من أورشليم وبطش حاكمها؟

الحق أقول. لقد فاجأني أبانوب بما سأل، كما أني لم أكن قد فكرت في ذلك من قبل، كما أني لست متيقنا من أن السيدة العذراء قد ذهبت إلى الأهرامات أم لم تذهب، وهل هناك ذكر لهذه الأبنية العظيمة في الكتاب المقدس أم لا.

قلت له بينما ألكز دابتي كي تغذي السير:

- لا والله أيها الابن الطيب، لكن عندما أعود إلى ديرنا في مريوط فلسوف أسأل الأب بالامون عن ذلك، فهو واسع العلم، كثير المعرفة.

حك أبانوب أنفه بيده قليلا ثم قال:

- لقد حدثني أبي ذات مرة عن هذى الأهرامات، فقال إنه كان يعرف عجوزا طاعنا في السن، وهو نسابة ومولع بالتواريخ وحوادث الأيام، وكان طالبا لكتبها القديمة، واللفائف المدونة عن ذلك، وقد أخبره ذلك الهَرِم، أن قوما قد احتفروا قبرا بدير أبو هرميس، فوجدوا ميتا في أكفانه وعلى صدره قرطاس ملفوف في خرق، فاستخروجوه من الخرق، فرأوا كتابا لا يعرفونه، وكان الكتاب بالقبطية الأولى، فطلبوا من يقرؤه لهم، فلم يقدروا عليه، فقيل لهم إن بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرؤه، فخرجوا إليه فقرأه لهم، وكان فيه:

«كتب هذا الكتاب في أول سنة من ملك ديقلطيانس الملك، وإنا استنسخناه من كتاب نسخ في أول سنة من ملك فيليبس الملك، وأن فيليبس استنسخه من صحيفة من ذهب، وكان من الكتاب الأول أن ترجمه له أخان يقال لأحدهما أيلو والآخر يرثا، وكان الكتاب المنسوخ ما معناه: إنا نظرنا ما تدل عليه النجوم فرأينا أن آفة نازلة من السماء، وخارجة من الأرض، فلما بان لنا الكون نظرنا ما هو فوجدناه ماء مفسدا للأرض وحيواناتها ونباتها، فلما تم اليقين من ذلك

طلبنا من ملكنا بناء أفروشات وقبر له، وقبر لأهل بيته، فبنى له الهرم الشرقي، ولأخيه بنى الهرم الغربي».

لم أقتنع بما رواه أبانوب عن قصة ذلك الرجل، وما أخبر به، وكنت أفكر في أن لغة الأقدمين ولسانهم، لو كانا قد بقيا حتى يومنا هذا، لكان وجد من يقرأ ويعرف حقيقة تلك الأبنية العجيبة الغامضة.

والحق أقول، إنني ومنذ أن كنت في بربة عون أتأمل ما نقش وحفر على جدرانها وأحجارها من تصاوير ونقوش، داخلني شعور بالضيق، لأني لم أفتهم معنى كل هذا، ولقد تساءلت بداخلي السؤال ذاته: لماذا لم نحفظ لسان الأقدمين على لساننا؟. ولماذا لم نعرف ما خطوه ورسموه وما تئول إليه معانيه وتفاسيره.

إنهم كانوا وثنيين وليرحمهم الرب ويعفو عنهم، لكن كان لديهم علم ومهارة وفنون ينتفع بها، وما دونه وخطوه، ربما كان لحكمة أرادوها، وربما كان حتى ينتفع بكل ما حصلوه من معارف، أحفادهم المخلوقين بعدهم.

كنت خلال تفكيري هذا، أطالع بين الحين والحين تلك البناءات العجيبة، ملتفتا إليها، وكنت أتساءل كيف رفعت أحجارها العظام حتى ذلك العلو وكيف حملت ومن أي المواضع جاءوا بها؟

وكان أبانوب من أهل الفراسة، خبيرا بكشف ما يدور في دواخل النفوس، إذ راح ينظر إلى مليا بينما نحن سائر في الطريق، واستطرد قائلا:

- لقد سألت ذات مرة أحد الذين هندسوا أبنية المسلمين وجوامعهم من مهندسي القبط عن صناعة الأهرام وحجارتها، وهو رجل صاحب فن وحب للأصباغ وألوانها، وممن يرسمون قون القديسين والقديسات بالكنائس، وكنت أزوده ببعض الأصباغ العزيزة المجلوبة من بلاد الهند والصين لزوم عمله هذا، وهو ما يعز وجوده في بر مصر، لقد قال لي ذلك الرجل «إن علم الهندسة العملية، ورفع الثقيل إلى فوق، يستوجب أن يكون القوم قد هندسوا سطحا مربعا، ونحتوا الحجارة ذكرا وأنثى، ورصوها بالجبس البحري، إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، وكانوا كلما صعدوا، ضموا البناء حتى يكون السطح الموازي للمربع الأسفل مربعا أصغر من المربع السفلاني، ثم عملوا في السطح المربع الفوقاني مربعا أصغر بمقدار بما بقي في الحاشية ما يمكن رفع الثقيل إليه، وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه اليه ذكرا وأنثى، إلى أن ارتفع مقدارا مثل المقدار الأول، ومازالوا يفعلون ذلك، إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك، فقطعوا الارتفاع، ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل، ونزلوا في النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرما واحدا.

كان ذهني وأبانوب يقول ذلك مشتتا، عاجزا عن الخلوص الى فكرة بعينها، إذ كانت الأفكار تتداخل فيه، وتقفز فوق بعضها قفزا. كنت أفكر في الوباء، وبغيابي عن الدير، رغم أنني أرسلت إلى الأب بالامون موضحا عذري في ذلك الغياب، وكنت رغم حماسي متوجسا من الذهاب إلى منف، فقد لا أجد بها ما يشفي غليلي مثلما كان الامر في أون، لذلك فأنا لم أهتم كثيرا لما رواه من تفاصيل البناء وخلافه. قلت له وقد كنت قلقا مشوشا:

- أين سنحط الرحال عندما نصل إلى منف؟ لقد أوشك الغروب على الرحيل، والعتامة ستحصل حتما، ولسوف يدركنا المساء ولن يكون أحد في الطرقات والدروب بها.

- هذا صحيح يا أبتِ. سنبيت في المدينة ولابد، لأننا لا يمكن أن نتوجه إلى معبدها أثناء الليل، وإلا يظن بنا الظنون، لأن النباشة ونهابة البرابي ينشطون خلال الليل وظلامه.

قاطعته

- يمكننا التوجه إلى بيعتها، ونستأذن رئيسها في المبيت بها حتى يحل الصباح.

- أظن أنك لا تستطيع ذلك يا أبتاه، فالبيعة الآن ملكا للملكانية، بعد أن بيعت من أصحاب مذهبنا لهم، حتى يمكن الوفاء بالتزام الخراج المفروض على كورة المدينة وما يتبعها من قرى، لأن أهل المدينة ليس لديهم المال الكافي واللازم للوفاء بذلك الخراج، بسبب زيادته زيادة بينة منذ العام الفائت. وأنت أيها الأب المبجل لا يمكن أن تبقى تحت سقف ذلك الكفر الخلقدوني الطمث يا سيدي، شعرت بالأسى واسقط في يدي، فأنا بالفعل لن أذهب لأبيت في بيعة ملكانية. تنهدت وأنا أصلب فقال أبانوب:

- لا تبتئس أيها الأب، فلن يمر عام أو عامان حتى يعجز أتباع الملكانية عن سداد الخراج، فيبيعون البيعة لنا مرة أخرى ونستردها بكل ما فيها من أوان مقدسة ونفائس طاهرة. عموما، سنتدبر ليلتنا حتى الصباح، ولسوف نبيت بخان في المدينة، صاحبه يعرفني جيدا، فأنا معتاد على ذلك، بسبب تجارتي، التي كثيرا ما تضطرني إلى المبيت في المدن والبلدات التي أذهب إليها عندما يجن الليل ولا أستطيع العودة الى عون خلال ذلك الوقت.

دخلنا (منف) والشمس تلملم ضياءها لتتوارى في الأفق، ولا أدري، لماذا بدت لي عندئذ، مدينة حزينة كامدة، رغم عمارها. كانت أبنيتها

قديمة جُلها من الطوب اللبن، ذات سقوف عالية وبيبان خشبية ضخمة قد نسقت على نحو يخالف ما عهدته في بلدتي قربيط، وبيوت مصر السفلى التي رأيتها. كانت الشبابيك بهذه البيوت والتي تطل على الطرقات صغيرة ومرتفعة، تقترب من السقوف، بحيث لا يستطيع الرجل النظر منها حتى وهو واقف مستقيم القامة. مررنا ببعض الدكاكين والتي كان أصحابها يعرفون أبانوب من قبل، لأنهم هشوا له، وصاحوا مسرورين مرحبين به، داعينه إلى العروج إليهم والجلوس معهم قليلا، وكان أبانوب يلاطفهم ويعتذر منهم متذرعا بتأخر الوقت وضرورة أن يذهب إلى الخان أولا.

عندما وصلنا اليه، كان الخان منزلا حجريا مهندم البناء على عكس ما رأيته من بيوت صادفتنا قبل ذلك، وما أن دققنا بابه، وفُتح لنا، حتى دخلنا وعقلنا ركائبنا داخل الفناء المتسع المفضي اليه ذلك الباب، وما أن تعرف الخادم على ضوء القنديل الشحيح الذي يحمله على أبانوب، حتى حياه بمودة شديدة، ثم إنه قادنا إلى حيث موضعنا، وكانت غرفة فسيحة ضمن الغرف العديدة المطلة على الممر الطويل الضيق الذي تبعناه فيه.

سأل أبانوب وقد بدا من لهجته أنه يعرف الفتى جيدا.

- أين أبوك ميناب أيها الفتى؟

- خرج لجلب الجبن والزيتون من عند يوسف البقال، ولعله عائد الآن.

- هل لديك شئ من حَب العرب، فتصنع لنا منه قهوة مرة؟

خرج الفتى ليلبي ما طلبه أبانوب، فحكى لي عن ميناب، إذ قال إنه كان بالأصل تاجرا للرقيق المجلوبين من بلاد ما وراء النهر، وهو بالأصل كان يهودي الديانة، لكنه آمن بالسيد المسيح، بعد أن تجلت له رؤيا بمنامه تكررت ثلاثا، ففي كل مرة منها، كان يرى السيدة العذراء وهي تأتي إليه فتفتح باب هذا الخان، وتخرج كل من فيه من الجواري والغلمان، وكان هذا المكان هو محل تجارته في مبتدأ أمره، فلما تدبر تلك الرؤيا، وسأل من وهبه الرب كرامة تفسير الأحلام، أيقن أن السيدة ترشده إلى الايمان القويم، فآمن بالمسيح وصار من أهل التقوى، وهجر تجارة البشر، بعد أن أعتق كثيرا من عبيده وجواريه، وكانت أم الفتى الذي خرج لتوه جارية مجلوبة من أرض الأرمن، فلما ماتت وكان هو طفلا صغيرا، تبناه ميناب وصيره وكأنه ولده الذي خرج من صلبه، بعد أن رعاه وعلمه بمكتب من مكاتب منف، وهكذا صار ميناب من أكثر الناس إيمانا بما أرشدنا إليه الرب، وكان قد تصالح منذ زمن مع متولي كورة منف، بعد أن بذل مالا في سبيل ذلك، فلم يهدم ذلك المتولي البيعة، بل صارت أفضل مما كانت

عليه بعد أن جددها ميناب وزودها بفروشات وأوان جديدة للخدمة، منها أنبل من أجمل ما يكون، وكئوس فضية للمناولة، وهذه البيعة هي التي اشتراها الملكانية الآن، لضيق يد اليعقوبية كما قلت لك قبل ذلك.

فرحت جدا بما قاله أبانوب عن الرجل ميناب فصلبت وأنا أقول:

- فليباركه الرب، وليوفقه لما فيه مصلحة الديانة المستقيمة دائما.

جاء الخادم بقدحين من القهوة مع سطل من شراب سكري حلو المذاق وقال إن هذا منقوع نبات معروف في منف منذ القديم ويسمونه حب العزيز، ونادرا ما يوجد في كور وبلدات أخرى، لكنه يباع كحب مثل البذورات وقت الأعياد وموالد الشهداء والقديسين.

امتنعت عن شرب القهوة، فتعجب أبانوب لذلك وقال إنه يحبها كثيرا فقلت بدوري:

- أنا لا أشربها إلا عند الضرورة، فهي تسبب عدم النوم وهي ترياق يفيد في حالات لدغ الثعبان أو العقرب لأنها تنبه مخ الإنسان وتقويه ثم إني نصحته بقولي:

- لا تكثر منها، فكل شيء في اعتدال أوجب وأصح.

- لقد توارثت شربها من أبي الذي تعلمه من عرب بلدته قفط، والآن أنا أجلبها في عون من أولئك العرب المسلمين القاطنين بالقرب منها، وعند خرائب حصنها القديم المتهدم، والذين يطلق عليهم عرب الحصن، ولكن حَب العرب شاع وانتشر في أماكن كثيرة، منذ أن استولى العرب على البلاد، وقد عرفها الناس منذ أن أخذ هؤلاء يذهبون للارتباع بدوابهم في البلدات والكور زمن الربيع من كل عام.

جاء ميناب، فاعتنق أبانوب بشدة، وحياني وهم بتقبيل يدي، وكان فتاه قد أسرج لنا سراجا منذ دخولنا إلى هذه الحجرة، فرأيت وجه ميناب على ضوئه الشحيح، وقد تعجبت للون لحيته الصهباء، وبياض بشرته، فلما جلس بيننا عرفه أبانوب بالغرض الذي جئت لأجله إلى منف.

رفع ميناب حاجبيه المنظومين بدقة فوق عينيه في تساؤل ثم قال:

- يا الله.. إن الوباء كان شديدا خلال العام الفائت بمنف، وحصد أرواحا كثيرة خصوصا وقت طلوع النيل، وكانت جلها لأطفال رضع، لكنه والحمد للرب، تراجع هذا العام وخف. لقد لطف السيد بنا، لكني سمعت بحدوثه المتزايد في أسفل الأرض خلال هذه السنة.

قلت مصدقا لما قال وأنا أصلب:

- أجل أيها الابن التقي، إن كل القرى والبلدات التي مررت بها في أسفل الأرض اجتاحها الوباء، ولم يفرق بين غني أو فقير، شيخ أو طفل، رجل أو امرأة إن مآسيه في كل مكان وعلى قارعة كل درب وطريق، لقد رأيت كثيرا من الناس مطروحين أرضا دون أن تمتد لهم يد المساعدة، بل وهناك بيوت باتت مهجورة بلا سكان بعد موت كل من فيها، بل لقد قيل لي إن هناك زرعا لم يجد من يحصده لأن أهل القرية فنوا جميعا عن بكرة أبيهم، ولا يوجد بها من يقوى على العمل، لذلك فأنا أطوف ببعض البرابي القديمة، علني أجد بها شيئا تبقى من الكتابات القديمة المهجورة، فقد يكون بها ما يعين من علاجات فيرتفع الوباء، ويشمل الرب الجميع برحمته.

تساءل ميناب

- ولماذا اخترت بربة منف دون غيرها من هياكل الأوثان لتبحث بها عن ذلك؟ إن هذه البربة نهبت منذ الدهور القديمة، ولم يتبق منها سوى أطلال شاهدة على ما كانت عليه في القدم، ويقال إنها كانت أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان. واعلم أيها الأب التقى، أن عجائزها مازالوا يحكون عنها ما تناقلوه عن عجائزهم. وفي العهد

القديم طرف من أخبارها، والحكايات عن دفائنها وكنوزها القديمة لا تنتهي، وقد قيل إن أول من خربها بخت نصر وهو من بلاد ما بين النهرين، عندما جاء بجيشه إلى مصر، فهدم مبانيها وصروحها، واقتاد كل من كان فيها من أفاضل الناس وحكمائهم أسرى عندما رجع إلى بلاده، لينتفع بعلمهم وعلومهم العجيبة، والآن يأخذ العرب كثيرا من حجارتها المهندمة ليبنوا بها منازلهم في الفسطاط.

قلت وقد تعجبت من كل ما قال:

- ولكن من أين لك بكل هذه الحكايات والمعرفة عن منف وما جرى لها في غابر الزمان.

رد ميناب متنهدا:

- الحكايات عنها كثيرة ولا تنتهي، حتى أنني كنت أسمع بعضا منها في البلاد الأجنبية الغريبة، حين كنت اشتغل بتجارتي الأولى، وقد حكي لي رجل من المجوس عبدة النار، عندما كنت ذات مرة في بعض بلداتهم ببلاد فارس، ولما اخبرته أنني من منف، فقال إنه كان يعرف وراقا من الذين ينسخون الكتب وهو مولع بالتواريخ، فأعلمه أن منف في القديم كانت مدينة عامرة، لها سبعون بابا من حديد، وبها

قناطر وجسور بتدبير وتقدير، حتى أن الماء كان ليجري تحت منازلها وأفنيتها، فيحبسونه ويرسلونه كيف شاءوا، لأنه كان معمول بها آلة تحمل الماء ثم تلقيه من أعلى سور المدينة، وذلك أنها كانت درجات مجوفة كلما وصل الماء إلى درجة امتلأت أخرى حتى يصعد الماء إلى أعلى السور ثم ينحط فيدخل جميع بيوت المدينة، ثم يخرج من موضع إلى خارج المدينة.

بدا أبانوب غير مهتم بما يقوله ميناب، إذ راح يداعب هرا كان الفتى قد دخل علينا يحمله بين ذراعيه، وراح يسأله عن اسمه وما الذي يأكله، وقد كنت لاحظت ولع أبانوب بالقطط، هو وأولاده في عون، إذ كان لديهم أكثر من قط يدللونه ويطعمونه بدارهم.

قال فجأة كعادته وكأنه مل من كلام ميناب :

- أمعنى هذا كله، أنه لا فائدة من الخروج غدا إلى بربة منف؟ أي أنه من الصعب وجود أي شيء مما يطلبه أبونا بها؟

رد ميناب:

- لا.. أنا لا أثبط عزيمتكما بكلامي هذا، ولكن ما يتبغيه أبونا من رقوق وأوراق قديمة ولفائف مكتوبة لهو من الأمور الصعبة في

تقديري، فما حكيته عن بخت نصر فاتني منه أن أخبركما، وهو الأهم أن الرجل لم يكتف بسرقة الهيكل الكبير بالمدينة وسرقة أوانيه الذهبية وموجوداته النفيسة، لكنه سرق ما به من كتب كثيرة كانت تضمها مكتبته، وساق الكهنة والقساوسة العارفين بالطبابة وعلوم الهندسة والأفلاك إلى حيث بلاده التي جاء منها.

بدا لي ميناب رجلا ظريفا، بلا تكلف يجيد المسامرة والمؤانسة، وقد تعجبت من معرفته الكثيرة، وحفظه لما يسمعه من حكايات وأخبار، وأردت أن استزيد معرفة عن منف مما لديه من أخبار، إلا أنه سألني بغتة:

- ولكن هب أيها الأب التقي أنك وجدت كتبا او شيئا من رقوق قديمة، كيف ستقرأ لسانها وتعرف ما جاء بها؟

- لقد وفقني الرب إلى معرفة بعض من القبطية الأولى بدير مريوط، وكان ذلك منذ زمن على يد راهب مستقيم الإيمان، وقد أدركت أن القلم القبطي القديم يتشابه مع قلمنا القبطي الآن، لكني لا أفتهم أو أفسر تصاوير البرابي ولغتها العتيقة، وهذا أمر يحزنني - وليغفر الرب لي عندما أقول ذلك، فربما كان في اللسان الوثني العتيق ما يفيد العباد، ويعينهم على ما يلاقونه من مصاعب، وربما كانت به معرفة صادقة لا تشوش ولا تبلبل أفكار الناس.

كنت بالحقيقة، وأنا أقول ذلك، إنما أبغى أن أوضح له أن معرفتي بأي لسان وثني قديم لا تعني إيماني بما سطر به من ضلالات كثيرة، لكني أبغي انتقاء ما به من علوم نافعة ولا أكثر من هذا، لأنه وحتى في زماننا هذا، هناك من يخلط كتب الوثنية الأولى ودياناتها بالديانة الحقة وهو ما حدث في الماضي ومنذ زمن الكنيسة الأولى المباركة، وكما كان الحال مع فالينتوس وتلاميذه الهراطقة، مثل برديصان وبطليموس وهراكليون وكل الذين كانوا يخلطون الديانة القويمة بتجديفات الوثنية، بحيث تبلغ وقاحته بأن يضع كتبا يسميها كتبا مقدسة، ويكتبها بالقبطية القديمة. كنت أخشى أن يظن بي ذلك الرجل ميناب الظنون، فأردت له تبيان الغرض من ذهابي إلى البربة والبحث بها عن كتب للطبابة لا غير. وكي أؤكد صدق مسعاي إلى ذلك قلت :

- وربما وجدنا بها يا ولدي كتبا ضد كلمة الرب، فنحرقها أو نعدمها حتى لا تقع في يد واحد من المارقين عن الدين، فيفتن بها الناس وخصوصا البسطاء منهم.

قال ميناب وقد شعرت بأن في كلماتي ما طمأنه وأراحه فقال:

- أدعو الرب أن توفق في مبتغاك يا أبتِ، وأن تفعل دوما ما يعلي كلمة الرب ويكون فيه خير للناس.

لا أعرف لماذا، وبعد أن قال هذا الكلام تذكرت أنه كا ن يهودي الديانة بالأصل، ولا أعرف هل كنت أشك بإيمانه لما سألته:

- لقد أخبرني أبانوب عن دخولك في ملة المسيح، ولكن أمازلت متملكا للسان العبراني حتى الآن؟

- أجل يا أبتاه، فإن أهلي مازالوا على دين اليهود، وأخي يعيش بالفسطاط، وله تجارة ومعاملات فيها وراء البحر، فهو يسافر بالسفن والمراكب حتى الهند وما حولها من بلدان، لكني أعرف ألسنة أخرى بسبب تسفاري الكثير في الماضي، فأنا أفتهم ألسنة بعض طوائف الفرس والأرمن، وأهل أشور، وكذا قليل من آرامية السريان القديمة.

ابتسم وهو يخاطب صبيه وقد هب واقفا:

- هيا يا قلادة لنجهز لهما عشاء خفيفا، اترك (مسرور) كما هو بحجر أبانوب وتعال معي.

وعندما خرجا، كان مسرور والذي قد بدا مستكينا ناعسا بحجر أبانوب قد قفز باتجاههما وهو يموء مواء لطيفا، وكأنه قد أفتهم أن ثمة طعاما سوف يكون له نصيب منه.

عاد ميناب بعد أن أحضر لنا شيئا نتقوت به، وكان يخنة باقلاء مطبوخة بلحم الضأن، فاعتذرت عنها بسبب أني لا آكل اللحم، وطلبت منه أن يتكرم ويوافيني بقليل من الجبن العادم والزيتون، وبعض من الشاكوريا إن وجدت.

فلما جاء غلامه بما طلبت، وشرعنا في تناول نعمة الرب الشريفة، سمعنا بكاء وعويلا، وكأنه صادر عن امرأة شابة، فتوقفت قليلا وتساءلت عن ذلك، وقد ظننت أن أحدهم قد توفاه الرب وانتقلت روحه إلى ملكوت السماء، لكن ميناب تهند بأسي وقال:

- المسيكنة مارية، إنها الشابة الملتاسة التي سيتلفها الجنون ، ما أن يأتي الليل حتى تشرع في الندب والعويل، وتظل على هذي الحال حتى يهدها الألم، فتسكت وتنام، وقد يتعالى صراخها فجأة ولسبب غير معروف، حتى يصبح النوم صعبا، وقد احتج بعض الناس لدى أبيها بسبب ذلك، ونصحوه بأن يسقيها شرابا مسكرا عند قدوم الليل.

صلبت، ورحت أسأل ميناب طالبا معرفة المزيد عنها فقلت:

- أولم يسع ذووها لعلاجها؟ لعل روحا شريرة قد تلبستها، هل هي على هذى الحال منذ زمن بعيد؟

استطردميناب:

- منذ بضع سنوات تخلط عقلها وراح، بعد أن فقدت ابن عم طحان، كانت مخطوبة له، كان قد ذهب ليحضر حجرا جديدا لطاحونة من طرة بدلا من القديم الذي تلف، وبينما هو يعدي النيل في قارب زمن صعود الماء، انقلب القارب وجرفه التيار، ولم يعثر له على جسد حتى يومنا هذا، وكانت الفتاة نائمة عندما أوقظوها فجأة ليخبروها بما جرى، ومن ساعتها وهي ذاهلة عن الدنيا، تتفوه دوما بكلمات غير مفهومة، وتبكي وتصرخ، ويزداد ذلك منها في أثناء الليل.

مست حكاية الشابة مارية هذه أوتار قلبي، فرحت أتذكر حكايتي مع سيرين، وكيف أنها لم تتم هي الأخرى، وإن اختلفت في أسباب ذلك، وتخيلت، وأنا المعاني المجرب - ما أصاب هذه المسكينة من آلام وجروح بالقلب، يصعب أن تداويها أيام الدهر وسنينه، تنهدت بدوري واقترحت:

- هل يمكن أن تأخذني إليها في الصباح يا ميناب، وقبل أن أذهب إلى البربة، فربما رقيتها بآيات إيمانية ونصحت ذويها ببعض العلاجات الشافية لها بمشيئة الرب.

ثم إننا نمنا بعد أن أنصرف ميناب وتركنا.

خرجنا في الصباح التالي متوجهين إلى بربة منف المهجورة منذ زمن بعيد وكما قال ميناب. كنت قد أفقت قبل طلوع الفجر، وتهيأت لصلاة باكر كما هو معتاد، ودعيت ربي كثيرا أن يوفقني فيما أبتغيه، وقبل ذهابنا إلى البربة عرجنا إلى منزل أباكيري الفلاح، والد المسكينة مارية، وقد افتهمت من ميناب أن أباكيري هذا من مساتير الناس، وهو يمتلك أراضي ودواب، وأن أراضيه من أفخر الأراضي وأجودها مما جاد به بحر النيل عند هذه البقعة وطماه من طينه الأسود، وأن الرجل لم يعقب من زوجته غير ابنته هذه، رغم أنه تزوج بأخرى غير زوجته رغم معارضة رئيس بيعته لهذا، لأنه مخالف للدين، لكن أباكيري هدده بأنه سوف يشتكيه لوالي المسلمين فسكت رئيس البيعة عن ذلك مرغما، غير أن الرب شاء، وكأنه يعاقب أباكيري على ذلك، فلم ينجب من الزوجة الثانية، بل وابتلاها الله بآفة، كانت أكلة غريبة شوهت خلقتها، فباتت منفرة قبيحة، مما جعل الناس يتجنبونها ويعافون النظر إليها.

فلما خطب ابنته إلى ابن عمها وعمل يوم إعلان الجبانيوت بالكنيسة عملا مهما كبيرا، ذبح فيه من بهائمه ومواشيه الشيء الكثير ووزع مما أعطاه الله على عموم أهل منف وقراها المحيطة مالا يحسب، ويتخطى العقل في

عدده، وظلت الأفراح مقيمة بسبب ذلك لمدة سبع ليال متوالية، حيث جلب الفرق الموسيقية والراقصات وأصحاب الملاهي والألعاب، لكن حدث ما حدث بعد ذلك وانقلبت الأفراح إلى أتراح، وبات الرجل وبعد غياب الشاب، حزينا مكسورا، وترك زراعته وأشغاله لبعض من أقربائه، وتلهي بمصيبة ابنته، فقد كانت كل حيلته في الحياة، ونور عينيه، الذي أنطفأ فجأة، وللرب في ذلك حكم.

عند منزل أباكيري دق ميناب الباب، وكان قدر أرسل في الصباح الباكر إلى أباكيري من يخبره بقدومنا، فلما فتح لنا ودخلنا إلى داره الوسيعة حيث موضع استقبال الغرباء، قدم لنا ما يتوجب تقديمه للضيوف من باب التحية والاحترام، وكان مشروب الفقاع مما يعمل في بيوت الفلاحين من الشعير، وقبل أن أسأله عن ابنته قال:

- أنت تعلم أيها الأب الجليل أنني لم أعدم حيلة، لأجل شفاء ابنتي، إلا وقمت بها، حتى أني سعيت إلى بعض شيوخ المسلمين المعهود لهم بالطب والحكمة، أو أولئك المشهود لهم بالكرامات، فقرأوا لها بعضا من آيات قرآنهم، كما صنعوا لها الأحجبة والرقي المكتوبة بخط العرب وكتاباتهم دون جدوى، كما أني طفت بها كثيرا من الموالد في ديورة قريبة وبعيدة دون جدوى، والمصيبة أن حالتها تزداد سوءا يوما

بعد يوم، فسلمت أمري للرب، ودعوته أن يرحمها ويرحمنا ويقبض روحَها، لتستريح ونستريح من كل هذا العذاب.

صلبت واستغفرت الرب وقلت له مستأذنا:

- هل يمكن لي رؤيتها أيها الرجل الطيب

تردد قليلا قبل أن يقول:

- أرجو ألا يزعجك ذلك يا أبي.

خرجنا من باب الدار الأخرى، والمفضى إلى حيث الحقول، والذي تدخل منه المحاصيل وقت الحصاد لتخزن، كما هو متبع في بيوت الريف. كان إلى جانب ذلك الباب وبعد أن خرجنا منه حجرة صغيرة من الحجر الصوان ، ذات طاق ضيق محوط عليه بالحديد من كل الجهات، بحيث يستحيل أن ينفذ منه رأس أو جسد إنسان، بينما كان بابها مصنوعا من خشب الجميز الغليظ المتين، والذي يستحيل دفعه إلا بجهد أولي القوة، دفع أباكيري الباب بعد أن خلصه من مزلاجه الخارجي، فصر صريرا مزعجا. رحنا نخطو إلى الداخل بحذر بينما أتمتم بآيات إيمانية داعيا الرب أن يلهمني بما فيه الخير للرجل وابنته.

كان المكان غرفة كئيبة مظلمة، يكاد ألا يدخلها من نور النهار، إلا ما يقدر بنور السراج الصغير التافه ورغم سطوع الشمس وزهزهتها بالخارج. في النهاية وعند أقصى الركن بذلك المكان، رأيت عينين واسعتين تحدقان في اللا شيء، وتطل علينا من وجه كائن راقد على كومة من القش، وقد تكوم على نفسه، وكأن هناك ما يراه ويخيفه كثيرا.

كانت رائحة المكان تفوح بالعطانة والعفن، وبدت النظرات المطلة علينا أكثر ذعرا، وكأن صاحبتها، قد اكتشفت وجودنا فجأة.

صلبت وهمست لأبيها:

- هل هي هنا طوال الوقت؟

أطرق أباكيري وأجاب:

- يصعب أن تظل معنا حيث نكون بالدار، لأنها تتهيج كثيرا، ولقد أذت أمها أكثر من مرة، رغم أني كنت أسلسلها بالحديد معظم الوقت، كما أنها سعت لمغافلتنا ذات ليلة وحاولت إشعال النار بالدار، وكان فناؤه مليئا بالكتان بعد الحصاد، لكن الرب ستر، بعد أن اكتشفت جارية لأمها الأمر، وكانت قد أوصتها أن تظل ساهرة يقظة بجانبها.

تصعبت عليّ حال الرجل، وشعرت بالإشفاق على ما أصابه، لكني أشفقت على ابنته المسكينة أكثر وسألته راجيا:

- بحق الرب، أخرجها من هنا الآن، واطلب من أهلك أن ينظفوها، ورجاء أن تتركوها معي قليلا. سأذهب برفقة ميناب إلى حيث نحن ذاهبان وسأوافيك مرة أخرى لأراها عند الظهيرة ثم إننا تركناه وخرجنا مستهدفين بربة منف مقصودي ومرادي.

كان قلبي منقبضا بينما أتجه برفقة أبانوب إلى خرائب بربة منف القديمة، فالذهاب إلى بيت من بيوت الوثنية القديمة، لم يكن بالأمر السهل الهين على النفس، ففي هذه الأماكن، كانت تعبد آلهة الكفر، وتحرق لها البخور وتذبح لأجلها الذبائح، ويبتهل للعديد منها، ولأوثانها المصورة على هيئات صنوف الطير والحيوان.

لم أحتمل ما يعتمل بداخلي من ضيق وهواجس وظنون تتعلق بزيارتي للبربة، فقلت مفصحا لأبانوب عما يدور بنفسي، وكان شعوري آنذاك، هو أن ذلك الرجل، صار بالنسبة لي صديقا صدوقا، وواحدا من أقرب الناس إلى قلبي، بعد أن عايشته ، وعرفت سريرة نفسه وصفاء روحه.

- يا أبانوب، إني لخائف - وحق الرب - أن أكون بقدومي إلى هذا المكان الوثني النجس قد خالفت تعاليم الرب، وحدت عن سكة

الديانة المستقيمة، لكني أقسم بمن خلقني أني لم آت إلى هذا المكان طالبا لأمر، غير البحث عما قد يكون فيه نفع للناس وشفاؤهم، وخلاصهم من ذلك الوباء الوبيل.

- استغفر الرب أيها الأب الطيب حاشا أن تكون هناك مظنة غير شريفة بحضورك إلى هذا المكان، ولا أظن أن الرب لا يعلم بحقيقة سريرة نفسك الطاهرة، وإيمانك المستقيم، ثم أنسيت أن أطهار كنيستنا الأولى، كانوا يفرون إلى هذي المعابد ويختبئون بها من بطش الروم وذلك قبل أن يؤمن ملوكهم بالمسيح، ويحرمون إقامة العبادات والشعائر بها؟ أنت لست أول من جاء إلى هنا من أهل المسيح الأبرار. لا، أنت أعلم مني وأنت العارف بالديانة الحقة، إنه لا تجديف ولا تخليط في عقيدتك عندما تأتي إلى هنا.

طمأنت كلمات أبانوب قلبي كثيرا، وأدخلت سكينة كانت تفتقدها روحي، فرحت أدعو الرب، وألتمس شفاعة القديسين والقديسات، وأتمتم بالمزامير الواقية، وآيات الإنجيل الشافية قائلا:

«لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر، ولا من عظماء هذا الدهر الذين يُبطلون، بل نتكلم بحكمة الله في سره:

الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا، التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر، لأن لو عرفوالما صلبو رب المجد. بل كما هو مكتوب: ما لم تر عين، ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان: ما أعده الله للذين يحبونه».

وهكذا بقيت، وبينما كنا سائرْين، كنت أكثر من القراءات اللاهوتية التي أحفظها عن ظهر قلب، وأكثر من التسبيح والدعوات، حتى وصلنا أخيرا إلى جملة من الأبنية الحجرية الخربة، كان بعض التماثيل الوثنية الضخمة يلوح من خلف الأسوار والحوائط المتبقية، بدا شيء منها مكسور محطم وملقى على الأرض إلى جانب أحجار متفاوتة الضخامة، كسى بعضها بنقوش وتصاوير كتلك التي رأيتها في بربة عون، وكانت ثمة تماثيل وأصنام أخرى منتصبة قائمة وهي غاية في العلو والضخامة، وكأن الفروغ من عملها، كان في التو والحال.

بدا المكان هادئا ساكنا ، وقد نمت حوله مساحات ممتدة لم تزرع بيد بشرية، أو تهذب لغرض الانتفاع بها وحصدها، كان الصمت شاملا المكان، اللهم إلا من صوت طائر عابر، أو هسيس داب زاحف. زادت وحشة نفسي، وتصاعد بروحي غم، وقد تخيلت الذين عاشوا في أزمنة

هذه البرابي، وما كانوا عليه خلال حياتهم لكن في النهاية، فإن كل حال يزول في هذه الدنيا الفانية، صلبت واستغفرت الرب مرة أخرى، بينما أشار أبانوب تجاه جانب من هذه البربة وقال:

- يبدو أن هذا حارس المعبد أيها الأب الجليل.

تساءلت مستنكرا:

- وما الذي يحرسه في هذا المكان الموحش المهجور يا ترى؟

وكأن أبانوب قد فاجأه سؤالي فرد محاولا تلمس إجابة:

- لا أعرف. لكن هذه المعابد أغلقت زمن الروم وقبل دخول العرب البلاد بنحو قرن من الزمان مثلما سمعت، ربما يوجد هنا ما يستحق من كنوز ثمينة من ذلك النوع الذي يسعى وراءه أصحاب المطالب من البدو، أو النباشة وغيرهم من الناس. ثم إن هناك من يسعى وراء عظام الموتى المدفونين في أكفانهم ، فهم يستخرجونها لأغراض علاجات وطبابة، وفي أعمال السحر والطلسمات، وقد رأيت ذات مرة في تنيس رجلا كنت أبيعه بخورا نفيسا، وهو من المشتغلين بالصنعة الشريفة والطلمسات يسحق بعض من الرميم القديم

المجلوب من البرابي الوثنية خصيصا، وقال إنه يستخدمه في تحويل بعض المعادن إلى معادن كريمة كالذهب والفضة.

لم أكن مدركا أنه يوجد حراس لتلك البرابي القديمة حتى الآن وبعد مضي ما يزيد على قرن من دخول العرب المسلمين وامتلاكهم أمور البلاد، فكل ما أعرفه أنه في زمن الروم، وبعد إيمان ملوكهم بعقيدة المسيح، منعوا إقامة طقوس الوثنية بهذه البرابي، وحرموا تقديم القرابين بها، أو التبخير لآلهتها القديمة.

قلت:

- ولكن في بربة عون لم يكن هناك حراس؟

رد أبانوب:

- بربة عون أكثر خرابا من هذه البربة، حتى أن أحجارها بقي منها ما هو أقل بكثير من الأحجار هنا في منف.

لم أعلق أكثر على الضلالات التي قالها أبانوب والمتعلقة برميم الموتى الأقدمين، إذ أنه نادى على ذلك الجالس ينبش الأرض بنقف جاف وبدا وكأنه يخط أو يرسم شيئا على الأرض.

صاح أبانوب عليه بقبطية تخالطها عربية مهلهلة، فجاء الرجل متمهلا.

تأمل ببطء ردائي الكهنوتي، وصليبي الخشبي المتدلي على صدري من حبل الليف الرفيع المعلق به، وبدا للوهلة الأولى وكأنه مستنكر لقدومي إلى هذا الموضع، أو أنني لست إلا شخصا آخر وقد تخفى في زي الرهبان. رفع حاجبيه الخشنين الغارقين في بياض المشيب دون أن ينطق شيئا.

همس أبانوب لي بأن الرجل قد لا يفهم العربية جيدا مثل كثير من عجائز البلاد، وخصوصا في البلدات والمناطق المعزولة البعيدة عن العمران، وهذا ما توصل إليه بحكم خبرته وتجواله المتكرر في كثير من المواضع التي مر بها، ثم إنه أسر لي بأنه يرجح أن هذا الرجل ربما كان من بلدة بعيدة في أعلى الأرض، لأن جلبابه وعمامته الكبيرة مختلفتان عن تلك التي ترتدى في الجيزة ومنف.

خابت توقعات أبانوب سريعا، إذ اكتشف أن الرجل افتهم كل ما قاله لي، فقال بعربية مفهومة ولا بأس بها إلا في بعض الكلمات التي قالها بقبطية أخميمية مثلما أدرك وتعلمت من القبطيات في ديرنا بمريوط.

- أصولي من بلدة الديموقراط بأعلى الأرض، لكني أخدم في هذا المكان أبا عن جد. أنا أحرس هذا المكان مع عائلتي، ونعيش هنا منذ

زمن طويل، الآن لم يعد أحد يهتم لأمر هذه البرية بعد أن تهدم أكثرها وصارت خرابا. كيف أخدمكما يا ولديّ؟

بدا العجوز عن قرب وهو يقول ذلك طاعنا جدا في السن، وكانت أمور كثيرة تتقافز إلى ذهني بشأنه وشأن حياته، بل ومماته أيضا، لكنني سكت إذ كان أبانوب قد بدأ يشرح له ويعلل السبب في مجيئنا في هذه البرية، وهل توجد بها أوراق قديمة أو رقوق، يمكن أن يستعان بها على شفاء الناس، وهل يمكن أن ننسخها؟

تمهل الرجل كثيرا قبل أن يجيب، بل وراح يتفحص هيئتنا مجددا، وبقي صامتا يتسمع إلى أنفاسه الصاعدة الهابطة، فاستأنف أبانوب الكلام مرة أخرى..

- يا أبتاه، نحن لسنا هنا من أجل النبش أو النهب، وهذا الأب الطيب جاء من أقصى البلاد في مريوط، وكان ذاهبا لرؤية أمه في بلدة قربيط، لكن الرب كان قد استردها إلى ملكوته فلم تتكحل عيناه بمرآها، وخلال ذلك شاهد ما فعله الوباء بالناس، وهو أب مطبب مداو، فلما لم تنجح علاجاته في دحر الوباء، انتوى أن يبحث بنفسه في رقوق وأوراق الأقدمين، آملا أن يجد بها ما يريح نفسه ويرضي الرب. هذا هو كل شيء.

- هل يمكنك أن تعرف ما بها إذا كانت موضوعة بالقلم القديم المندثر؟، وهل ستتفهم معنى ما بها من علاجات إن وجدت؟، قال العجوز.

بدأ العجوز بكلماته هذه وكأنه يسعى لدحض ما قاله له ميناب، وكأنه لا يصدقه، أو كأنه يريد أن نقر ونعترف بالهدف الحقيقي الذي جئنا من أجله ونخفيه عنه.

أسقط في يدي، فأنا لم أرغب أن أجيبه بنعم فتلعب فئران به، ويحجم عن مساعدتي وتداخله مزيد من الظنون بشأن مطلبي وقدومي إلى البربة، والحقيقة إنني كنت أجيد قراءة القلم القديم المتأخر والقبطية الأولى، إذ كنت قد تعلمت ذلك القلم المتأخر خلال إقامتي بمريوط من أحد الرهبان ممن يرسمون القون بورع وإتقان، وهو راهب جراجوس والذي كان قد توارث صنعة الرسم والتلوين من جدوده وآبائه، وكان يطوف البلاد فيرسم القون وصور الشهداء الأوائل الأبرار في البيع والديورة، حتى انتهى أمره إلى ديرنا في مريوط، ولقد تاب الرب على ذلك الأخ التقي، لأنه كان بمبتدأ أمره ينتمي إلى عائلة وثنية تمتهن رسم صور المتوفين على توابيتهم المعمولة لأجل أحيان أجلهم، لكن ذات ليلة تجلى له أحد القديسين الشهداء المعروفين ببلدته خلال نومه، وأنطقه بقانون

الإيمان، فلما أصبح صباحه إذ به يرسم شارة الصليب، ويتلو القانون بمحبة وخشوع، ثم إنه أقنع عائلته بالمسيح فآمنت وصح إيمانها دون أن تحيد عن الديانة المستقيمة.

تهربت من سؤال العجوز فأجبت:

- أستطيع نسخها أيها الرجل الصالح إن وجدت، ولدي من يستطيع قراءتها وفهمها في دير مربوط بمشيئة الرب.

قادنا العجوز وبعد جدال إلى ما تبقى من المكان، والذي بدا لي وكأنه كان في الماضي كبيرا متسعا للغاية، وربما كانت تحوطه أبنية أخرى، إذ كانت هناك أحجار أخرى كبيرة تستبين من بين الحشائش القريبة منه، وحوله، وكانت بقايا مدخله على شكل بيلون مرتفع مؤد إلى فناء واسع مفتوح، وقد صفت إلى جوانبه بقايا من أعمدة، كان كثير من أحجارها مفقودا، ثم كان هناك بهو مسقوف إلا قليلا، وبه أعمدة أيضا.

قال العجوز:

- بالداخل أعيش مع أهلي.

جاءت أصوات أطفال متداخلة، بينما إمرأة تنهرهم، فأيقنت مما قاله العجوز وخمنت أنهم ربما كانوا أحفاده.

نظر العجوز إلى المكان بنظرة شاملة واستأنف كلامه:

- سمعت من جدي دوما، أن هذا المكان كان في الماضي فخما عظيما، وأن أطنانا من الذهب والفضة كانت به وكذا معاهد لدراسة العلوم، لكن كل ذلك سرق على مر الأيام، وقد حكى جدي عن جبار غاشم أغار على هذا الموضع، جاء من بلاد العجم، وقبل مجيء العرب فحمل كل ذلك معه، حتى أهل الحكمة والعلم والصنعة الشريفة ممن كانوا يعيشون هنا، فلما جاء العرب لم يجدوا إلا كثيرا من الحجارة المُهندسة بمقادير مختلفة، والأعمدة الطوال المصنوعة بحرفة وفن، فحملوا منها ما استطاعوا حمله في المراكب، وعدوا بها بحر النيل، فبنوا منها جامعهم الكبير في الفسطاط وكذا قصورهم وبيوتهم.

كنت مهتما أكثر بما جئت لأجله، فلم أهتم لما قال فسألته:

- ولكن ألا توجد أوراق أو رقوق من كل هذا، أم أنها ضاعت أيضا؟

- قلت لك كل شيء نهب على مر الزمان، فالروم وكما قال جدي حصلوا على الكثير من هذه الأوراق منذ زمانهم الأول في البلاد وأخذوا الكثير منها وقبلهم فعل صاحب الإسكندرية، أما العجم فقد اقتادوا العارفين المطلعين على أقلام هذه الأوراق إلى بلادهم وكانت نساء من بين هؤلاء المأسورين وقتها، من الحكيمات العالمات.

صلبت وأنا أقول: يا الله.

استأنف العجوز حكاياته:

ولكن ما زالت هناك بعض الأوراق والرقوق التي تعثر عليها بالصدفة، كلما سعينا لإيجاد عيدان جافة بين تلك الأعشاب والنباتات المحيطة بنا، لنعمل منها وقايد لطبخنا وخبزنا، وأحيانا ننبش الأرض علنا نجد شيئا من الذهب أو خلافه يعيننا على حياتنا الصعبة.

ثم إنه تركنا وعاد حاملا جرة فخارية قديمة، وقد فوجئت أنها محشوة وحتى نهايتها بلفائف من البردي ورقوق جلدية قديمة.

صحت رغما عني:

- بحق السماء .. أمازالت توجد كل هذى الأوراق وبعد مضي كل هذى السنين البعيدة وما حكيته عنها؟!

تنهد العجوز بحرقة ورد:

- وربما يوجد ما هو أكثر من هذا، ربما كان هناك ذهب وفضة ونفائس مدفونة بالأرض ولا يعلمها إلا الرب، ألم يقولوا دوما عن هذى البلاد إن ترابها زعفران؟

بسرعة، قفز إلى ذهني ما أنشده مانتيوس العابد بينما كنت خارجا من دير مريوط، وكدت أنشد مثلما أنشد:

كنوزك يا مصر لا هي فضة ولا ذهب

كنوزك مدفونة في كتب من مضى ومن ذهب

وقلت لنفسي، إنها الإشارات. الإشارات التي نبهني لها الأب سرابيون في قربيط.

كدت أن أنحني على يد العجوز لأقبلها، قبل أن آخذ منه الجرة، وأحتضنها في صدري وكأنها كنز نادر ثمين.

جلست على أحد الأحجار المتناثرة بالمكان، ورحت أستخرج لفيفة وراء لفيفة وأفتحها برفق ومهل، إذ كانت في معظمها أوراقا قديمة جدا وجافة وعلى وشك أن تتحول إلى هشيم. كان كثير منها مليئا بكتابات قديمة،

وبالقلم العتيق ومزينة بتصاوير لحيوانات وبشر ونباتات، كان بعضها الآخر تبدو به نجيمات وقد دوِّن تحتها باللغة المندثرة ما لا يقرأ ولا يفهم. كنت لا أحيد ببصري عن الأوراق، عليّ أجد ما قد يشفي غليلي ويقضي حاجتي التي جئت إلى هذا المكان من أجلها دون جدوى.

بقيت على هذى الحال قرابة الساعتين، وبدأ اليأس والقنوط يداخلاني، وكنت طوال الوقت طامعا آملا في رحمة الرب وحنانه على العبد المسكين الذي هو أنا، وكان مما يزيد ضيقي هو شعوري بأن أبانوب قد بدأ في الضجر والتملل من طول الانتظار، إذ وجدته يخط مربعات على الأرض ويلعب مع العجوز لعبة السيجا بأحجار صغيرة وحصى جمعها من المكان ومثلما كنا نفعل ونحن أطفال في بلدتي قربيط.

فجأة وبينما أوشكت لفائف الجرة على الانتهاء، وجدت لفيفة داكنة من جلد البارشمان الذي أعرفه جيدا بسبب وجود الكثير من لفائفه في دير مريوط، وهو جلد رقيق لنوع من غزلان الصحراء المحيطة بنا في مريوط. فتحت اللفيفة وإذ بي أجد ما لم أجده في البرديات الأخرى مجتمعة، إذ وجدتني أستطيع قراءة كلماتها وكانت مكتوبة بالقلم القبطي القديم الذي تعلمته من راهب القون الجراجوزي في مريوط، كانت وكما هو واضح لكل عين تقرأ، ونفس تفتهم، أنها علاجات شافية فبعد أن

قرأت رقية وثنية جعلتني أصلب مكتوب بها «أقسم عليك أيها الملاك لتحمي من كل الأمراض التي تصيب العجائز باسم إيزه وحوريس وأوزير» ، وجدت علاجات للحكة والجرب والتقيح الجلدي وعلاجا لصفراء الكبد، وكان مما وصف للمصاب بحكة في جسده وصفة مكونة من خمسة مقادير من نطرون وحجر يضاف لها صدأ الرصاص وكبريت وكمون متساوية المقادير، وعند تعرق المريض بالحمام، يدلك جسده بهذا الخليط، ثم يغسل جسم العليل بعد ذلك بالماء الساخن.

لكني وما أن قرأت بعد ذلك «إذا أحرق قشر الرمان أو سقيط ثم خلط بعسل وطليت به آثار الجدري، وغيره أياما متوالية، ذهب أثرها»، حتى وجدتني أهتف رغما عني بصوت مسموع وأنا أصلب:

- حمدا للرب . لقد وجدت بغيتي بعد اصطبار.

ترك أبانوب ما بيده من أحجار وحصى، وقام ينظر ما بيدي.

وجد أبانوب ورقة البارشمان بين أصابعي فنظر فيها وهز كتفيه احتجاجا وقال:

- ما هذا؟ إنه يبدو قلما قديما أيضا، لكنه بلا تصاوير أو نقوش ملونة كالمعتاد.

ثم إنه اقترب مني وهمس لأنه افتهم ومنذ قليل ضرورة ألا يدرك العجوز أنني أعرف بعض اللسان القديم، وأضاف:

- ولكن أقرأ ما بهذه الأوراق وافتهمته حقا يا أبي؟

تعمدت أن أقول بصوت عالٍ يسمعه العجوز والذي كان يراقبنا وهو جالس بطرف عينيه:

- سأنسخ هذه الأوراق، إذا سمح شيخنا المبارك ولسوف يوجد من يقرؤها. لقد طلبت منه ذلك منذ قليل، ألم تسمع ذلك؟

نهض العجوز من مكانه، وجاء ينظر الورقة بيدي دون الأوراق الأخرى، بدا وكأنه مستريب في أمر ما، ثم قال:

- هل بهذه الورقة سحر أو كيمياء.. لماذا تحملها بيدك دون غيرها.

قلت:

- لا .. لا يوجد أي سحر بهذه الورقة أو كيمياء، ولكن بها كلام عن الديانة، هل تسمح لي بنسخها؟.

قلت ذلك، وليرحمني الرب إذا كنت أكذب ولم أقل الصدق ولكن عزائي إنما كان رغبتي في ألا يعترض العجوز ويحول بيني وبين هذه الأوراق.

قال:

- إذا كان الأمر يتعلق بهذه الورقة، أو ورقة أخرى فقط، فلا مانع من نسخها، لكن اترك بقية الأوراق فنحن نحتاجها في الوقيد كثيرا، ونتعب حتى نلمها من هنا وهناك.

حاول أبانوب التوسط بيننا فقال:

- ما رأيك أن تعطينا هذه الأوراق يا عم.. ما اسمك يا سيدي؟

- باهور ابن بهم.

أضاف أبانوب:

- أعطنا هذه الأوراق يا عم باهور وسوف أعطيك ربع الدينار مقابلا لها.

هز باهور رأسه بشدة كعلامة على الرفض وقال:

- لا .. لا يمكن أن أعطيها لك لأن أخي يشاركني فيها.

رد أبانوب:

- لكنك تحرقها يا عم باهور وتوقد بها.

قررت إنهاء الجدل فقلت:

- ما رأيك يا أبي أن تأخذ ربع الدينار وأنسخ هذين الورقتين فقط.

وكنت أشير إلى الورقة التي بيدي والأخرى التي كانت تلازمها في اللفيفة.

انصرفنا بعد أن ارتضى باهور بما اقترحته في نهاية الأمر، كان عليَّ الوفاء بوعدي فأرجع مرة أخرى إلى بيت اباكيري، لأعاين ابنته، لعلي أجد علاجات تخرجها مما هي فيه من شقاء واضطراب النفس، فلما وصلنا إلى بيت الرجل، استقبلنا ونادى على إمرأته وجارية لها،فجاءوا بالفتاة، وقد قيدت بالسلاسل، فلما عاينتها، وجدتها فتاة افترسها الهزال، حيث استبانت عظام فكيها ووجنتيها من تحت جلدها الشاحب، وبدت لي ذاهلة، كسيرة الروح، وإن كانت على جانب من ملاحة وصباحة في مجمل هيئتها.

سألت أباها أن يفك قيدها ففعل، فلما رحت أقترب نحوها جفلت قليلا، ثم إني سألتها برفق عن اسمها فلم تجب، بل صمتت، وهي تنظر إلى لا

شيء، طلبت من الحاضرين

- هل تتركوني معها قليلا؟

خرج الجميع، وإن بدا أبوها غير مبتلع لمطلبي هذا، فلما صرت معها ولا سوانا، كررت سؤالي عن اسمها مرة أخرى فنطقت:

- بستامون

ولم تزد حرفا عن ذلك، ثم أطرقت برأسها وبدت وكأنها تفكر بأمر ما

هل تعرفين من هي بستامون يابستامون؟ قلت فلما لم ترد واصلت:

- إنها شهيدة ماتت في سبيل الرب مثل نساء مؤمنات كثيرات في زمن الاضطهاد ألوثني، أقول ذلك لك، لتفكري، فيمن عانوا وتحملوا جميع أنواع العذاب، دون أن تضعف نفوسهم، أو تتخاذل أرواحهم.

ورحت أحكي لها عن القديسين والقديسات الذي اقتدوا بفادينا مهما واجهوا من صعاب في هذه الحياة، وأن ما ابتليت به في هذه الدنيا ما هو الا اختبار من الرب لها، فعليها المثول لمشيئته وقبول كل مشيئة له في هذه الدنيا.

ثم إني بقيت مع الفتاة ساعة، لم أنقطع فيها عن التلاوات الإيمانية، وتصبير روحها بحكايات الشهداء الأوائل، وكل الذين راحوا ضحايا الاضطهاد الوثني في زمن الروم، فصورت لها كيف كانت النساء في مدينة طيبة توثقن من إحدى القدمين ويرفعن في الجو بماكينات خاصة، وأجسامهن عارية، ويعرض هذا المنظر المخجل القاسي لكل المتفجرين. وكذا أخبرتها عما حدث في مدينة طيبة أيضا، حيث كان المسيحيون يوثقون لفروع الأشجار وجذوعها، لأنهم كانوا يقربون أضخم الفروع إلى بعضها بآلات، ويوثقون إليها أطراف الشهداء، ثم يتركون الفروع لتعود إلى وضعها الأصلي، حتى تتمزق في الحال أعضاء من دبروا لهم هذه الحقيقة، وكان ذلك زمن الإمبراطور الرومي الوثني مكسيمينوس.

وهكذا بقيت أحكي لها وأصور شنائع حدثت للمسيحيين في ذلك الزمن الوثني البغيض، وكان غرضي من ذلك هو أن أهون عليها مصيبتها عندما تتجسد بمخيلتها مصائب الشهداء وما لا قوه من تعذيب وقتل، وقد أيقنت خلال ذلك أنه لا جدوى من برء هذى الفتاة، إلا إذ بكت وسالت دموعها، لأن أباها كان قد أخبرني، أنه ومنذ ضاع خطيبها في النهر، فهي لم تبك ولم تسل دموعها، وكنت مدركا أن البكاء الآن، معناه عودة الشعور والحس لها، لأنها ومنذ وقوع الواقعة بقت مصدومة إلى حد الذهول وفقدان عقلها لموازين الإدراك والفهم المعتادة.

فلما انتهيت من حكايتي لها عن الشهداء الأبرار، ومعاناة من عانوا من أهل المسيح، وجدت دموع الفتاة تسح من عينيها شيئا فشيئا، وفجأة انفجرت في نشيج، رغم كونه مؤلما للنفس إلا أني استبشرت به خيرا وفرحت لأنه إشارة برئها.

قلت لها مواسيا ناصحا:

- استهدي بالرب يا ابنتي، واستغفريه كثيرا، واطلبي رحمته لك ولكل المتعبين، أوليس هو من قال:

تعالوا إلى أيها المتعبين لأريحكم.

فلما كفكفت المسكينة دموعها وهدأت ناديت على أهلها فلما جاءوا سألت أمها:

- هل تطبخين لها شيئا لتأكله؟. إن الفتاة بحاجة ماسة إلى الطعام، وليتك تأتيها الآن بشراب من العسل والحليب لتشربه.

ثم إني طلبت من جاريتها أن تأتي بماء طهور في سطل مما يكون من موضع جار وغير راكد أو ساكن.

عادت الأم بالحليب، فشربته الفتاة بينما رحت أقرأ متمتما من المزامير على الماء الذي جاءت به الجارية:

«طوبى لمن يعطف على المسكين، في يوم الشر ينجيه الرب. الرب يحفظه ويحييه ويجعله في الأرض مغبوطا، ولا يسلمه لأيدي أعدائه. الرب يعينه على سرير وجعه. إنك أقمته من كل أوجاع مرضه، أنا قلت يا رب ارحمني، اشف نفسي لأني أخطأت إليك، أعدائي تقولوا على شرا متى يموت ويباد اسمه؟ الذي دخل ليراني، كان يتكلم بالرياء وقلبه يضمر لي شرا».

فلما انتهيت من ذلك قمت ورششت بعض قطرات الماء على رأسها وأنا أسبح بحمد الرب طالبا منه نزع أي أرواح شريرة تكون قد تلبست روحها، ثم صببت ما تبقى من الماء، شيئا على عتبة الدار، وشيئا على أركان الفناء الأربعة حيث كنا نجلس.

التفت إلى الفتاة قائلا لها:

- لماذا لا تذهبين إلى البيعة، فتتعلمين شيئا مما تتعلمه الفتيات والنساء هناك؟

تعلمي القراءة والكتابة، فتطالعين في الكتاب المقدس، وتتعرفين على آياته المطمئنة للروح والمريحة لكل نفس تقية.

وبينما أنا خارج اصطحبني أبوها مع أبانوب لأعود إلى الخان وقبل أن أفارقه قلت له ناصحا:

- لا تحبسها مرة أخرى، الفتاة صدمت صدمة قوية، هدت كيانها وزلزلت روحها المسكينة. أنا أظن أنها مصابة بدود حِفت الحراك، فيجب أن تُسقى كل يوم على الريق وقبل تناول أي طعام عقارا مخلوطا من صمغ السليخ أي النبتة التي هي شوكة اليهود مضافا إلى مقداره، ثلث من الماء، وينقع ويصفى وتشربه بتسامون فيصح بدنها.

ثم إنها مصابة بعلة واح أي ذلك الخلوروز الذي هو تعاظم فقر الدم بسبب الدود حفت، لذلك يجب أن يخلط تين بمقدار يسير من ملح البحر، ويضاف إلى ذلك ما مقداره ثُمن التين، وثلثه كذلك فقاع حلو، ثم يطبخ كل ذلك ويصفى ويؤخذ كل يوم، حتى تعود الدموية إلى جسدها وتتورد بشرتها باللون الوردي، وينتفي صفارها، وتزول البقع البيضاء الكبيرة منها.

ثم إني ودعته ولسانه يلهج بالشكر والدعاء لي، ووعدني أنه سينذر نذرا للبيعة، ويذبح عجلا يوزعه على المعوزين عندما تشفى ابنته وتطيب تماما.

عدت إلى باهور ابن بهم في اليوم التالي، بعد أن بت ليلتي في الخان، كان أبانوب قد غادرني عند الصباح ليمضي إلى شئون تجارته بعد أن ودعني، ووعدني أن يزورني ذات يوم في دير مريوط، فلما مضيت إلى باهور، وجدته جالسا بصحبة رجل آخر وكأن الخالق قد نسخه منه نسخا، صلبت كثيرا قبل أن يقول، ويبدو أنه استشعر تفاجئي:

- توأمي أنوخ. ولد قبلي بعدة دروج من الوقت لا غير. هو الأكبر.

سلمت على أنوخ، فحياني بصوت لا يختلف عن صوت باهور ثم قال:

- فهمت من أخي، أنك تريد نسخ بعض الأوراق التي لدينا يا أبي، فعلى الرحب والسعة، ولكن إن أردت الكثير منها، فلسوف تجده في بربة دندرة، هناك المئات منها، لقد كنت هناك منذ سنة ورأيت بعضها بنفسي.

تعجبت مما قاله أنوخ وسألته:

- إن دندرة وكما أعلم بعيدة جدا يا ولدي، لماذا تكبدت مشقة الخروج من منف إليها.

تلفت حوله قليلا وكأنه يخشى أن يسمعه مخلوق غيري، ثم قال بصوت خفيض وكأنه يعترف:

- هذه قصة يطول شرحها يا أبتِ، ولكني كنت قد ارتكبت إثما كبيرا، اضطرني لمغادرة منف والهروب بعيدا. كان ذلك منذ سنوات طويلة مضت. لكن الآن كل شيء انتهى.

دب القلق في قلبي، وخشيت أن أكون أتحادث الآن مع هرطيق خطير، أو مجرم عتيد، تلاعبت الظنون بأفكاري فقلت:

- أي أثم يا ولدي؟. بح بسرك. إن الرب بسرك عليم، فلا تخْشَ أن تبوح به لعبد من عباده. رد، وكأنه يريد أن يلقي بعبء ثقيل واقع على كاهله:

- لقد قتلت رجلا شريرا في زماني الأول.

ثم إن أنوخ حكى لي، أنه ذات ليلة، وبينما كان قد خرج خلال الليل من البربة، ليجمع بعض الحطب والعيدان من البرية المحيطة بها، إذ كان الوقت شتاء قارس البرد كما هو معتاد في شهر طوبة، وكانت أسرته وخصوصا الأطفال منها يعانون معاناة شديدة بسبب ذلك، وبينما هو يتلمس طرقه في الظلام، ويجذب بعض الأعواد الجافة، إذ اصطدمت قدمه بشيء وكأنه من المعدن وعندما التقطه وعاد به إلى البربة تبين أنه سوار ذهبي رسمت عليه تصاوير جميلة لطيور ونباتات، ثم إنه ذهب بعد ذلك إلى صائغ يهودي للفسطاط ليبيعها له، لكن الرجل أخذها منه

ورفض أن يعطيه مقابلها مالا، بل وهدده أن يشتكيه إلى قاضي المسلمين ليسجنه، وكان ذلك الصائغ غنيا مقتدرا ممن يصيغون الذهب لعلية القوم، فقد خاف أنوخ على نفسه، لكنه كان قد بيت على أمر في صدره، فكمن للرجل بعد ذلك وقتله وهرب إلى أعلى الأرض، وهناك لاذ بمعبد دندرة بعد رحلة تخفٍّ مليئة بالصعاب والمحن.

ظللت ساعات أنسخ ما أرغب في نسخه من الأقلام القديمة المدونة على أوراق البردي والرقوق، وكنت قد استعددت لذلك بأوراق أحملها معي، وأخرى جلبها لي أبانوب قبل أن يفارقني من وراق بمنف، وقد رفض أبانوب أخذ مقابلها مما كنت أحمله معي من دنانير، وقال إنها هبة وهدية منه لي، وكذا الأحبار التي أخط بها.

كنت خلال ذلك أفكر في حكاية أنوخ، وكذا فيما قاله عن بربة دندرة، فلما انتهيت من النسخ سألته:

- وهل بربة دندرة خربة مهدمة كبربة منف هذه؟

وهل بقي هناك من يحرسها حتى الآن؟

رد أنوخ بفخر، وكأنه يمتلك بنفسه البربة في دندرة:

- لا.. إنها بربة عظيمة عجيبة البناء، وهي كاملة صحيحة، وكأنها شيدت بالأمس فقط، إن كثيرين يؤمونها، ففيها وحتى هذه الساعة بعض من المشتغلين بعلوم القدماء، ومن هم مشتغلون بالصنعة الشريفة، وهم غاية في الأدب واللطف، وإن كنت أظن أنهم مخالفون للمسيحية رغم أنهم يظهرونها، ولكن لهم أمور عجيبة، وقد أقسمت ألا أخوض فيها مهما يكن الأمر، وكان ذلك شرطا لبقائي في هذه البربة.

- الحق أقول.. إن نفسي اضطربت كثيرا بعد سماعي ما قاله أنوخ، فقد تقافزت بداخلي أسئلة كثيرة عن بربة دندرة هذه، والقائمين عليها، وكنت أتساءل أكثر عن السر الذي يدفعهم لأن يشترطوا فيمن يقيم عندهم ألا يبوح بأمورهم والتي يرى أنوخ أنها عجيبة. كان باهور وأنوخ غاية في الكرم معي، فتركاني أنسخ ما أشاء، والحق أقول إن كتابات وثنية كثيرة كانت في الأوراق التي اطلعت عليها وهي لا علاقة لها بالطب أو أي من العلوم الأخرى النافعة، وبعضها لم أفهمه، كما كان بجزء منها شيء من زندقات الفلسفة تتعلق بالكون وبكيفية وجوده، والشمس والقمر النجوم.

بعد أن انتهيت من عملي، نصحت الأخوين الحارسين للبربة بقولي:

- أحرقوا كل هذه الأوراق، وكل ما تعثرون عليه من أوراق غيرها،

فهي في مجملها غير نافعة، وقد تجلب الشياطين والأرواح الشريرة المعادية.

عندما عدت إلى الخان، وجن الليل، ظللت أتقلب في فراشي طوال الوقت، أفكر في دندرة وقد جافاني النوم. كانت كلمات أنوخ عنها لا تبارح ذهني، وكان بي شوق جارف يستحثني أن أذهب إليها، وأعاين بنفسي كل ما قيل عنها، لكن كنت أيضا خائفا جدا من الإقدام على ذلك، فالمسافة إليها بعيدة جدا من منف لأنها تقع في أقصى المواضع من أعلى الأرض، ولم يكن الذهاب إليها هو الذي يشغلني، ولكن العودة منها إلى دير مريوط، وكل ذلك محفوف بالمخاطر، وكل ما هو مجهول، وكنت أفكر خلال ذلك كله في الأب بالامون، وما سوف ينتابه من ظنون بسبب غيابي كل ذلك الوقت، وبعد أن تنقطع أخباري عنه.

بقيت أصلب وأصلي متمنيا على الرب أن يهديني إلى سواء السبيل، وأن يوفقني فيما أنتوي وأختار من الأمور، وظللت هكذا دون أن أستشعر مرور الوقت، حتى غلبني النعاس، فنمت.

في صباح اليوم التالي، وبينما كنت أهم بمغادرة الخان، وجدتني مدفوعا، ودون أن أدري أسأل صاحبه:

- هل يمكن أن تذهب بي إلى الوراق الذي ابتاع منه أبانوب أوراقا لي قبل أن يذهب؟

وسألته أيضا:

- هل لديك نوتي في هذه البلدة، ينتوي صعود النهر خلال ذلك اليوم؟

أريد واحدا، فأنا ذاهب إلى أعلى الأرض.

زودياك

دندرة

كان النهار قد انتصف تقريبا عندما ودعت منف صاعدا بالنهر إلى مقصدي بدندرة، وكان النوتي الذي حملني على مركبه يحمل جماعة من الناس، بعضهم وكما افتهمت منهم كانوا هاربين من الوباء الذي ساد بأسفل الأرض، إضافة إلى من كانوا من أهل النوبة والسودان المحملين ببضائع مجلوبة مما يصنع في الفسطاط من سكر وصابون وخلافه، إضافة إلى الأنسجة والملبوسات التي عُملت بتنيس ودبيق، وحملت للبيع والتجارة بالحاضرة الجديدة لمصر والتي اعتمرها العرب وعاشوا بها بعد تسيدهم البلاد.

كان النوتي، وهو رجل أجف صارم، حازم في أوامره للجميع، قد حذرني من جماعة السودان، لأنهم وكما قال - طيبون لكنهم سريعو الغضب، ومنهم من لا يعترف بالرب سبحانه، ويعبد الشمس والنار، أو يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة، والذين يعترفون بالرب، يتقربون إليه بالشمس والقمر وغيرها من أفلاك السماء.

تعجبت مما قال، إذ لم أكن مصدقا أن بعض الناس وفي زمانننا هذا، وبعد كل تلك القرون التي مضت على هداية الرب، مازالوا على دين الوثنية الأولى، صلبت واستغفرت ربي كثيرا، ودعوته ضارعا أن يهديهم إلى الديانة الحقة، ويتوبوا عما هم فيه من ضلال. فلما لوحت الشمس بالوداع، إيذانا بارتحالها عن الكون، وبدأ المساء في الدخول، جاءني واحد من هؤلاء وجلس إلى جانبي بعد أن حياني بلسان قبطي صعيدي ضعيف النطق، عميم الأخطاء لكنه ورغم ذلك يفتهم بينما كنت ألاحظ شعره الجعد المهوش دون نظام على رأسه:

- أريد أن أسألك أيها السيد المبجل عن أمر أظنك قد تفيدني فيه

- على الرحب والسعة. تفضل.

- لدي ولد عزيز على قلبي، وقد خطفه النخاسون منذ سنوات عندما كان صبيا لم يبلغ الخامسة بعد، ولا أدري أين باعوه، لقد فتشت في كل مكان، وذهبت إلى كل كور أسفل الأرض، والمدينة الكبرى العامرة التي هي عند بحر الروم دون جدوى، حتى أن قلبي انفطر ولم أعد الاحتمال، فهل تستطيع يا سيدي ان تصنع لي سحرا، أو تعمل لي تعويذة، تفيد في رده إليّ.

صلبت واستغفرت الرب كثيرا قبل أن أجيبه:

- حاشا لله، أن أصنع سحرا، أو أقوم بشعوذة، ولكني سأسعى معك حتى نجده إن شاء الرب. ولكن عدني أولا وقبل كل شيء أن تؤمن بالرب الذي هو خالق الشمس والنجوم، وكل من كان في هذا الكون، وأن تكون من أهل المسيح إن وجدته حيا يرزق.

مد الرجل يده لمصافحتي بمودة وهو يقول:

- سأفعل إن تم لي مرادي ووجدت ولدي، بل وسأنذر مالا وذهبا لأجل ذلك

ثم إني علمت من ذلك الرجل واسمه بكلاز، أنه من بلد تقع عند نهاية أعلى الأرض وصعيدها، تسمى البجة وهم من البادية المتتبعين للكلأ حيثما كان الرعي وبأخبية من جلود، وأنسابهم من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس وليس عليهم متملك ولا دين لهم، وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، كما أنهم يركبون النجب الصهب، وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام، وكما استدليت من هيئته وقال، فإن بطون قومه خماص وألوانهم مشرقة الصفرة.

وقد حكى لي بكلاز هذا، لما سألته عما يتقوت به خلال جوبانه البلاد بحثا عن ولده، إنه إنما يبيع الحراب المجلوبة من موطنه، وهي حراب طوال،

تبلغ الحديدة منها ثلاث أذرع، والعود أربع أذرع، لذلك سميت الحراب السباعية، وصناع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهن رجال إلا المشتري منهن، فإذا ولدت غلاما، قتلته. ويقلن إن الرجال بلاء وحرب.

تعجبت جدا من ذلك، واستغفرت الرب، وقلت للرجل إني صاعد إلى بلدة دندرة لغرض في نفسي، لكنني سأسعى بكل جهدي كي أفتش عن ولده المفقود في كل المواضع التي سوف أكون فيها، وعندما أعود إلى ديرنا في مريوط، إن بقيت حيا بإذن الرب ومشيئته، ثم إني نمت بينما كنت أفكر في ذلك الرجل وقبيلته العجيبة.

استغرقت رحلتي إلى دندرة أياما طوالا، كنت أمضيها في الصلاة والاستغفار وتطبيب من حولي الذين يصيبهم المرض، وكان من ضمن ذلك صبي يافع مصاب برعاف الأنف، وهو مسافر مع أهله من أسفل الأرض، ليس بسبب الوباء فقط مثلما قال أبوه، ولكن هربا من الخراج المفروض عليهم من قبل متولي الخراج بكورتهم والذي عجز الرجل عن دفعه، بسبب أن آفة من آفات الأرض التهمت ما زرعه كله في حقله من كتان، وأنه اضطر لبيع ابنة رضيعة له في سوق النخاسة خلال العام الفائت حتى يفي ما عليه من دين، لكنه لن يفعل ذلك خلال هذا العام، ويبيع المزيد من أبنائه.

ولقد نصحت الرجل بأن يأخذ من الخل الحاذق يعني من قاع آنية الخل، مع جزءين من قشور السفرجل على أن يكون الخل ثلاثة أجزاء ويغلي على نار لينة حتى يذهب الثلث ويقطر منه في الأنف، فيبرأ الصبي بمشيئة الرب.

ظل النوتي صاعدا النهر بمركبه عكس التيار، وكان يحط بفلكه على الضفاف بين الحين والحين في بعض البلدات والمدائن التي تصادفنا، ليتزود بما يلزم الركاب من طعام وشراب، وأغراض أخرى، أو لينزل بعض المسافرين الذين يكونون قد بلغوا المواضع المقصودة لهم، ثم إنه كان يركب خلال ذلك إناس آخرون يبغون الوصول إلى بلدات بعيدة أخرى سوف يقصدها الرجل بمركبه.

كنت أنزل أحيانا لأجول خلال الساعات القليلة المسموح لنا بها، في بعض البلدات، فأزور مواضع وبيع كنت قد قرأت عنها في السنكسار، عن قديسين وشهداء ماتوا ودفنوا بها، فأتبرك بزيارتها، وأصلي لأجل أرواحهم الطاهرة، أو أنظر القون المصورة لهيئاتهم وأشكالهم، فأعرف كيف كانت ملامحهم، وكيفية إرديتهم، فأتمثل ذلك برأسي، وأتفكر في هؤلاء الذين صوروهم على هذه الهيئات بكل ما تنطق به من تقوى وجلال الإيمان.

وهكذا كنت قد نزلت إلى بلدة أخميم، التي بدت لي بلدة عجيبة، وكنت أعرف طرفا من أخبارها من شاب طيب يعمل قيما في دير مريوط، كان قد جاء منها لسبب أجهله وعاش حينا بالمدينة العامرة قبل أن يستقر بالدير، وقد قال لي ذات مرة إن أهلها فيهم من يشتغل بالسحر ومازال على دين الوثنية حتى وقتنا هذا، وينطق باللسان القديم المهجور، كما أن من دخلوا في دين المسيح مازال بعضهم يخلط الديانة القويمة بديانات الأوثان، وكذا يفعل بعض من الذين دخلوا في ملة الإسلام، وخصوصا وقت المصائب والموت، فهم يؤجرون الندابات والنائحات وهذا ما لا يفعله العرب المسلمون الذين جاءوا واستقرُّوا بالبلدة.

توجهت إلى إحدى البيع التي بمبتدأ البلدة، وقد قيل لي إن بأخميم هذه نحو خمسين بيعة، وقد تعجبت لذلك بسبب أنها بلدة صغيرة، وقد وجدت أن البيعة قديمة مهملة في كيانها وبناءئها، فلما ولجت إلى داخلها، وجدت بعض القون للسيد والسيدة، فلما سألت عمن يتولى أمر هذه البلدة من الآباء، قيل لي إنهم جميعا خارج البلدة، وعدوا النيل إلى المدافن، حيث يقومون بدفن رجل جليل من أهالي هذه البلدة، فصليت فيها وشكرت الرب كثيرا على كل نعمائه، ثم درت فيها بعض الوقت وغادرتها.

سألت بعض الناس أن يدلوني على بربة قديمة بهذه البلدة قد تكون مازالت موجودة، فرافقني شاب من هؤلاء الناس وهو متعجب من طلبي هذا، فلما وصلنا إليها بعد أن مشينا وقتا، وعاينتها بالنظر، وجدت تقديرا ، وبالتخمين أن طول البربة نحو مائتين وعشرين ذراعا، وسعتها مائة وسبعون ذراعا، وأنها قائمة على أربعين سارية سوى الحيطان، وبدا لي أن دور كل سارية ما يساوي خمسين شبرا تقريبا، وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا، وكانت رءوسها في نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها إلى أعلاها بالقلم الوثني العتيق، ومن رأس كل سارية إلى الأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت فيها ما يصل إلى ستة وخمسين شبرا طولا في عرض عشرة أشبار وارتفاع ثمانية أشبار.

فلما سألت الشاب الذي رافقني، وأنا أجوب فيها عن حراس لها، أجاب بأنه لا يوجد، وأن أهل البلدة يتجنبون الدخول إليها أو الاقتراب منها بسبب ما يشاع عنها من أنها إنما وضعت في الماضي السحيق لتكون مدرسة للسحر والكهانة، وأن بها كثيرا من عمل الطلسمات، وأعمال السيمياء والكيمياء، وأنه يُحكى، أن واحدا من أهل البلدة دخلها منذ سنوات ليعرف ما بها، وأنه ألصق على صورة من تصاوير هذه البربة شمعة مقادة وتركها، فألتجأت العقارب إلى الموضع الذي كانت فيه، ويقال كذلك

أنه كان بها شيطان قائم على رجل واحدة وله يد واحدة وقد رفعها في الهواء، وفي جبهته وحواليه كتابة بالقلم المجهول، وانه كان له أحليل ظاهر ملتصق بالحائط، ويقول بعض عجائزنا عندما يحكون عن ذلك إن هذا الشيطان من أوثان الأقدمين، وقد تسمت البلدة على أسمه، الذي هو مين، وأن أرضا بلسان الأقدمين هي أخ لذلك سميت البلدة أخميم.

سألته:

- وهل وجد بها شيئا من اللفائف أو قراطيس الكتابة؟

- في أيامنا هذى لم أسمع بشيء كهذا، ولكن قيل لي ذات مرة، إن جماعة من الروم جاءوا إلى هنا منذ زمن بعيد، وقبل أن أولد، ونقبوا حتى عثروا على أشياء تماثل ما تطلبه، وبعض من النفائس الذهبية، ولكن لا شيء في هذى البربة وكما ترى الآن.

عدت بعد ذلك إلى البيعة، فوجدت رئيسها قد عاد من الدفن مع الكهنة ومن يخدمون الرب بها، فلما رآني، وكان القيم قد عرفه بمقدمي، رحب بي واحتضني، ثم إني حكيت له عن الغرض الذي صعدت لأجله النهر، وحقيقة ما فعله الوباء بالناس في أسفل الأرض.

ثم إننا بقينا نتحدث ساعة، أخبرني خلالها ذلك الأب الطيب عن حدوث معجزة جرت في دير قديم يقع عند البر الغربي من النيل عند

موضع يسمى دمو، وهو على اسم القديس الجليل أبوفام، فقد وجدت أيقونة هذا القديس وقد سالت من عينيها دموع في ليلة من ذات الليالي، وأن القسس بعدها صلوا وقدسوا كثيرا حتى زال الأمر. وقد عرفت من هذا الأب الجليل كذلك، أن قبرنسطور المخالف، والذي قال أن السيدة العذراء ولدت يسوع فهو له طبيعة ناسوتية، موجود بأخميم، إذ أنه مات بها بعد أن جاءها منفيا بعد سبع سنوات، وكان ذلك سنة واحد وثلاثين وخمسمائة للميلاد بتواريخ الروم، وقال إن مشيئة الرب تجعل أنه اذا أمطرت السماء، فإن ماءها يحجب عن قبره ولا تنزل عليه، لأنه كان السبب في الهرطقة وما جرى في مجمع خلقدونية. ثم إن هذا الاخ المستقيم رئيس البيعة والذي عرفت أن اسمه صرابامون، سألني عن أحوال الضيع والديورات بأسفل الأرض، فقلت له إن كثيرا منها قد تهدم بسبب غارات العوام الذين دخلوا في ملة الإسلام عليها، كما أن بعضها صودر بسبب أنها لم تفِ بما عليها من ديون لمتولي البلاد، أما بيع الروم الذين غادر معظمهم البلاد بين حين وآخر فقد تحول العديد منها إلى مساجد، وقد أخبرته أن هناك بعضا من الآباء والرهبان يطوفون خلال هذه الآونة على الديورات والبيع، لجمع ما بها من أوراق تخص الديانة ولفائف مكتوبة عن تواريخ الكنيسة، وسير القديسين والشهداء منذ الزمن الأول لمرقس الرسول ، وذلك خوفا من ضياعها وتلفها،

فيذهب ما بها من معرفة عن كل ما يخص تعاليم الرب.

وهكذا بقينا نتداول همومنا، ونتناقش فيها حتى شعرت بأن الوقت قد أزف لرحيلي وعليّ العودة إلى المركب مرة أخرى، لأواصل صعودي عبر النهر إلى دندرة.

عندما عدت إلى موضعي بالمركب، كنت تعبا فنمت، دون أن أدري كم مر من الوقت، إذ استيقظت قرب العصر، على أصوات طرب وغناء، وعزف على النايات والصلاصل، والجنك، فلما تنبهت جيدا من النعاس، وسألت، أفتهمت أن رجلا قد اصطحب فرقة موسيقية من أخميم لتحيي حفل ختان ابن له في دندرة، وأنهم إنما أرادوا البدء في عملهم وتحيته مقابل ما سوف يعطيه لهم من مال لقاء بقائهم عنده لعدة أيام في دندرة.

كان صوت المنشد الذي تردد الجوقة وراءه ما يقول حنونا شجيا خصوصا عندما قال:

يامختن العرسان يا متولي

قبل ما تجرح حبيبي قل لي

أرمي على بدنه محارم تلي.

إضافة إلى كلمات كثيرة مغناة عن الختان وكيف يزف الطفل يوم إجراء هذه الجراحة له ومدى فرحة أمه وأهله بذلك وقد ذكرني ذلك بأهلي في قربيط، وحفلات الختان فيها، وكل الأوقات البهيجة مع أحبائي التي عشتها في هذا العالم، كما تذكرت إخوتي بدير مريوط العامر بالمحبة والتقوى، ثم عبرت مخيلتي صورة سيرين محبوبتي التي راحت في الوباء، ولن أنساها ما حييت، وتذكرت ذلك الحفل الذي أقامه أبوها بمناسبة زواجها. كادت أن تدمع عيناي، لكني تماسكت وصلبت، بينما أستغفر الرب بداخلي عن كل معصية أكون قد ارتكبتها خلال حياتي، بما في ذلك التحسر على أيام الحياة المبهجة والتفكير في كل ما هو جسداني وليس روحانيا.

رحت أصلي وأتلو بعض أجبيتي التي هي صلوات السواعي بصوت متهدج خاشع بالإيمان، وبينما كنت أقول:

«الرب يرعاني فلا يعوزني. في مراع خضر يسكنني. إلى مياه الراحة يوردني. يرد نفسي يهديني إلى سبيل البر من أجل اسمه، إن سلكت في وسط ظلال الموت فلا أخاف شرا لأنك أنت معي. عصاك وعكازك هم يعزيانني»

إذ وجدت من يقترب مني ويحييني، بعربية بدت لكنتها غريبة وغير معهودة بالنسبة لي ويقول بأدب:

- أريد أن أسألك بضعة سؤالات غمضت عليَّ فيما يتعلق باللسان القبطي التي لابد أنك تجيده أيها السيد وكما هو واضح من هيئتك ومما سمعته منك الآن. أرجو ألا أكون قد تطفلت عليك بكلامي هذا.

- على الرحب والسعة أيها الأخ الطيب. ولكن لأي سبب تسأل عن ذلك؟ أنت وكما تبدو من جماعة العرب. اللسان القبطي لن يفيدك كثيرا في أمور تجارتك، لأن كثيرا من الناس يتكلمون بها الآن، فلقد تفشت كثيرا بينهم في الآونة الأخيرة، خصوصا بعد دخولهم في دين محمد.

قلت بينما أحاول أن أفهم قصده من السؤال، وعيناي تتفحصان ما يرتديه من رداء كتاني موشي بالحرير، وما يضعه ببنصره الأيمن من خاتم فضي مُحفر بنقوش دقيقة ويتوسطه حجر من جوهر الزمرد الأخضر الثمين.

قال وهو يبتسم:

- لست تاجرا أيها الرجل الكريم، لكني مشتغل بالتأليف والتصنيف، وأبحث في علوم شتى، كما أنظر في كتب قديمة موضوعة، ومنها كتب القبط القدامى، لذا فأنا أسعى إلى دندرة، لأني، وكما أخبرت من

بعض الطيبين، افتهمت أن بربباها القديمة من يحسن معرفة اللسان القبطي العتيق وقراءة تصاويره، وسبر أغوار معانيها. دهشت كثيرا من تلك المفاجأة المخالفة لتقديري فيمن يكون الرجل، وما يمتهنه من عمل، فحاولت معرفة المزيد عنه متسائلا:

- ولكن ولأي غرض كل هذا يا سيدي؟

رد:

- أنا رجل مشتغل بعلوم كثيرة، منها الفلاحة والكيمياء والسيمياء والسموم والفلك والأقلام القديمة، وغيرها من فنون السحر والطلسمات.

زادت دهشتي كثيرا وقلت:

لكنك وكما هو بادي من هيئتك أنك مسلم من أهل القرآن، وليس السحر والسيمياء مما يحبذه دينكم كما أعلم.

- أنا نبطي كلداني الأصل، وإن كنت مسلما إلا أنني محب لعلوم وفنون الأقدمين من أهلي وأهل كافة الأرض، وإذا كان ما قلته ينفرك مني، ولا تقبل مطلبي منك، فأنا أعتذر منك وأتركك لشئونك.

كان فضولي قد زاد تجاه هذا الرجل فقلت:

- لا.. لا.. حاشا لله يا سيد..

- اسمي أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار والمعروف بابن وحشية النبطي.

قاطعني، فقلت:

- يا سيد أبو بكر .. أنا أريد أن أعرف لأي غرض اشتغالك بكل تلك العلوم وما مقصدك منها.

تنهد أبو بكر قليلا، وبدا مهتما، وراح يزيح خصلة من خصلات شعره المهوش الساقط على جبينه والمسترسل حتى نهاية رقبته ثم قال:

- إن كثيرا من علوم الأقدمين، كانت نافعة، مفيدة، ولكن أكثرها ضاع واندثر بسبب الأنانية والتعصب، والرغبة في الاستئثار، والتفوق، والبز، ولقد ضاعت هذه العلوم ومحيت معرفتها، بسبب ضياع الألسن القديمة، وقد عز يوم بعد يوم من ينطق بها ويفتهمها، والسحر ليس كله شرا وهو ليس باطلا بتمامه، لأن فيه جانبا من العلم والصنعة وإن بدا فوق العقل والمنطق المتعارف عليهما بين الناس، وكذا

هي السيمياء، فهي علم يتعلق بالاحتيال على النفس، وتهيئها لهيئات تبدو معها الأشياء على غير الحقيقة، إن الدين يا سيدي لا يخوفنا من العلوم، والقرآن العزيز يقول: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

لا أدري بما الذي يتوجب عليّ أن أرد به على كلام الرجل، وقد استشعرت أنه غزير المعرفة، ومن أهل العلم ولا ينطق إلا بكل منطق وحكمة، لكنني كنت أخشى أيضا، أن أقول شيئا، يجعلني أخوض في هرطقة وتجديف دون أن أدري، تحسست كلماتي وأنا أقول:

- لكن العلوم والمعارف القديمة بجملتها إنما هي علوم وثنية ياسيدي، وأنت تعلم أنها تفتن الناس وخصوصا العوام منهم وتحرفهم عن الديانة الصحيحة ... ألا توافقني في هذا ؟.

رد بحماس

- لا .. لا.. وعذرا، فأنا لا أوافقك، لأن ما يحرف العامة هو أن يعاملهم أهل الديانة والعلم وكأن الله خلقهم بلا عقول، فيلقنونهم النصوص المقدسة دون أن يفهموها لهم، ويخيفونهم بالنار وعذابها ويهيئون لهم جنة لا مثيل لها على الأرض، ويلغون عندهم أشرف ما خلق الله في الإنسان وهو العقل.

لا يا سيدي إن العلوم لا تفتن العامة، لكنها تجعلهم يتدبرون في خلق الله، ويفكرون في مظاهر نعمته التي جعلها لأجل البشر، وبذلك يدركون عظمة الخالق ويشكرونه على نعمته التي أنعم بها عليهم.

بدت كلماته مغايرة لما تعودت عليه من كلام، وكنت أستشعر أن به أمرا مبلبلا للفكر، معارضا لكثير من طرائق التفكير المعتادة وإن كنت والحق أقول، لم أسمع شيئا كهذا عن علوم الأقدمين، وكيف أنها نافعة مفيدة، على المرء أن ينظر في صالحها من طالحها، لكني كنت أريد الابتعاد عن الجدل، وتجنب كل تفلسف قد لا تحمد عقباه، ورغبت في إدارة دفة الحديث إلى جهة أخرى فقلت له، إنني ومنذ وقت ليس بقليل، أجوب بعض البلدات من أسفل النهر، صاعدا فيه بحثا عن علاجات ناجعة للوباء الذي عم وانتشر في أسفل الأرض وأفنى كثيرا من الخلق، وإنني ذاهب إلى برابي الوثنية حتى منتهى أعلى الأرض - لو استلزم الأمر - حتى يوفقني الرب في غايتي ومرادي، وأنني صاعد إلى دندرة لهذه العلة ولا سواها.

ابتسم الرجل وربت على كتفي، وبدا لي وكأنه قد استمع إلى مثل هذا الكلام من قبل، إذ زفر بحرارة ، وهو يثني كالمجامل على ما قلت، ثم إنه قام لينضم إلى جوقة الطاربين، ويغني معهم، وبدا فعله هذا بالنسبة

لي، بعيدا عن الوقار والحشمة، لكن ذلك ورغم كل شيء لم يزدني إلا رغبةفي معرفته، وشوقا كشوق المستهام، إلى سبر أغوار نفسه، ومعرفة كل ما يدور ويعصف بالفكر في عقله.

وهكذا صارت أيامي معه ونحن صاعدان بالمركب إلى دندرة، وقد انعقدت بيني وبينه مودة روحية، رغم اختلاف عقائدنا، وتباعد مذاهبنا، لكني وشيئا فشيئا، وكلما تعرفت عليه أكثر، أدركت أن الرب شاء أن يختلف ابن الإنسان عن أخيه في جملة من الأمور، كالهيئة واللون، والأصل والعرق، لكن ما يجمعهما دوما، هو حب الخير وصفاء السريرة، واللين في المعاملة، وحسن المسلك والطريقة، وكل ما يدفع بعمران الكون، ومواجهة مصاعب الحياة، وهكذا أخبرني أنه أتى صاعدا النهر، متكبدا مشقة الترحال قاصدا أخميم خصيصا لزيارة برباها، لأنها بربة قديمة للغاية وأنها كانت مخصصة في الزمن القديم لعلوم الصنعة الشريفة التي هي الكيمياء، وكذا السحر وفنون السيمياء، وأنه يعيش بها رجل عابد متصوف يدعى ذو النون، وكان يقرأ لغة البرابي فيها، وتعلم منها علم الكيمياء. وقد أخبرني أن كل ذلك قد دثر وضاع منذ زمن بعيد، ولم يتبق من علمها القديم شيء يذكر، بسبب غشومة الفرس والإغريق الذين نهبوا ودمروا وسرقوا أكثر ما بها من كتب العلم والمعرفة، وذلك عندما كانوا بمصر حاكمين لها، لكنه التقى قسيسا قبطيا بأحد أديرة المدينة، كان

لا يزال عالما ببعض من فنون السحر القديمة، وقد توارثها عن عائلة أمه، لكنه خشى أن يبوح بها لما علم أنني من الغرباء، وأني مسلم، فتعجبت لما قاله كثيرا، ورحت أفكر فيه.

كنت وخلال ارتحالنا، أطلع على قراطيس ابن وحشية التي يتعلم من خلالها اللسان القبطي، وأصحح ما يكون بها من أخطاء، وأعينه على فهم ما يكون قد غمض عليه من معان ودلالات، وقد افتهمت من خلال تكلمنا أكثر الوقت، أن لذلك الرجل الجليل مصنفات عديدة زادت على الثلاثين مصنفا في السحر والكيمياء، ورغم ذلك لم يبد الرجل في عيني وكأنه واحد من المشعبذين، بل هو بنظري إنما حكيم عارف بعلوم كثيرة لم أكن أعرف عنها من قبل، وقد زاد تقديري له، لأنه وهو النبطي الغريب عن أرضي التي ولدت فيها هذي، يسعى لمعرفة القلم العتيق لديارنا، وهو قلم مندثر عجيب، حوى كثيرا من العلوم والفنون، مثلما قال - بينما لا يسعى واحد من أبناء ديارنا لفعل ذلك، وكنت عندئذ، يداخلني خجل وحزن وشعور بانكسار وندم، يجعل أسئلة كثيرة تتكاثر برأسي عن السبب وراء ذلك، ومن المسئول عن حدوثه والتسبب فيه.

وقد جعلني ابن وحشية أفكر طوال الوقت في الجدود الذين انحدر منهم الناس، وجاء نسلهم لتستمر حياتهم هنا في أعلى الأرض، أو هناك في

أسفل الأرض، ورحت أتساءل عن لسانهم المندثر وأقلامهم المصورة العتيقة والعلة في انقطاعنا عنها، وعدم سريان ذلك اللسان على ألسنتنا، بينما ألسنة الإغريق واللاتين كانت شائعة بيننا إلى وقت قريب، حتى أن صلواتنا كأهل للمسيح مازالت تقام في بعض البيع بهذا اللسان، كما فكرت في تفشي لسان العرب وسريانه بين الناس وتراجع اللسان القبطي في زماننا هذا.

امتنيت لأبن وحشية بداخل نفسي، وحمدت الرب كثيرا لأنه وضعه في طريقي والتقيته، فبت أفكر في كل هذا الذي كان غائبا عن فكري ومعرفتي، بل واستشعر هواجس تنبت بداخلي بشأن لغتنا القبطية، وكيف ستضيع وتندثر ذات يوم، مثلما ضاع اللسان العتيق، وكتاباته القديمة المصورة.

كنت بين الحين الحين، وبينما أنا أفكر في كل ذلك أنطق بما جاء في الخولاجي المقدس، وما نردده منه في البيعة وقت النيروز في قربيط، بينما عيناي تتابع المشاهد المحيطة بشاطئ النيل المبارك وهو يجري، بينما ترتحل طيور سارحة في السماء، والفلك يتهادى فوق صفحته، وغصون النخيل والشجر، تتبدى وتميس، وكأنها تصلي للرب صلوات مباركة، وتظهر خضرتها فتنة للعيون.

همست لنفسي:

- أزمور إبي إكلوم أنتى تي رومبي هيتين تيك ميت إرستوس إبشويس تي ياروؤونيم ني مومي نيم، سيتي نيم ني كار بوس

وهو ما معناه بلغة العرب التي تعلمتها عندما وعيت:

- بارك إكليل السنة بصلاحك يا رب الأنهار والعيون والزروع والثمار.

صارت ملازمتي لابن وحشية بالمركب، وكأنها أمر لا أستطيع الفكاك منه، فقد أخذني الرجل بعلمه الكثير ومعرفته الواسعة. كنت أتركه فقط عندما أنفرد بنفسي للصلاة والدعاء والتسبيح، أو عندما أقوم لمباشرة بعض أفعال الدنيا الفانية، أو إذا غلبني النوم ولم أعد قادرا على متابعة المزيد مما يقول، وما عدا ذلك فكنت أكاد ألا أفارقه، فالرجل لا ينطق لسانه إلا بكل معرفة وحكمة، وكنت أتعجب كثيرا من إلمامه بألسن كثيرة قديمة وألسنة أخرى ما زالت متداولة حتى وقتنا هذا والتي قال إن منها اللسان الهندي والفارسي والكلداني والسرياني، وهو يبدو من هيئته وكأنه لم يفارق الخمسين بعد، كما كنت أتعجب من إنشغاله بالفلك وأسراره، إذ كانت لديه عدد وآلات يخرجها من متاعه بين الحين والحين، ويقيس بها قياسات

تخصه، يودعها بأوراق معه، فلما سألته عن ذلك، قال إنه ينتوي أن يؤلف كتابا في أسرار عطارد، وأنه إنما قصد الصعود إلى بربة دندرة خصيصا، لأن بها الكثير مما يخص علم الفلك الذي برع فيه قديما كهان هذه البربة، وهو يرغب في الاطلاع عليه والإلمام به، وأنه يتمنى عند وصوله إليها أن يجد بها من يكون قد ظل منشغلا بذلك حتى زماننا هذا، كما أنه يأمل أن يكون بها بعض من أهل الصنعة الشريفة التي هي الكيمياء.

وكنت ولأول مرة بعد تعرفي عليه قد علمت وكما قال إن هناك أقلاما قديمة كتبت بحروف أقلام لا يعرفها إلا أهل الصنعة مثل حروف العنبث، وحروف المسند، وحروف الفاقيطوس، وقد رسم لي بالجير بعضا من هذه الحروف على لوح أسود، لأرى هيئتها، فوجدت أنها غريبة الرسم والخط، ولا تتشابه مع حرفنا القبطي، أو حروف العرب المعهودة، وقد عرفت أنه ممن اجتهدوا لمعرفة مغزاها وما تسري إليه مقاصدها ومعانيها.

كان ابن وحشية لا يخلد إلى النوم إلا قليلا، وكنت كثيرا ما أجده خلال الليل جالسا، وقد انفرد بنفسه محدقا في السماء ونجومها المنيرة، خلال تلك الليالي الربيعية البديعة، إذ تبدو السماء وكأنها بللورة زرقاء كبيرة، تمتد بلا نهاية وتشع بضياء ذهبي باهر.

فلما سألت ابن وحشية عن ذلك التحديق، وبما هو مفكر فيه خلال جلوسه الممتد هذا، أعرفني أنه يبحث عن كيفية تركيب القوى السماوية الفعالة، مع القوى الأرضية المنفعلة في الأزمنة المناسبة للفعل والتأثير المقصود، وهذا هو فحوى علم الطلسمات، لأن الطسم هو العقد الذي لا ينجلي، ثم قال إنه نقل من لغة الأقدمين كتابا بهذا العلم يُدعى بلغتهم حناطوثي أماعي الكسداني.

عليّ الاعتراف بأن ابن وحشية وأموره كانت تشغلني حتى وأنا منفرد بحالي بعيدا عنه خلال بعض الأوقات، كنت أفكر دوما بما يقول، وأعادله بما أعرفه. هو لم يك يهتم كثيرا بالديانة، وبقيت متحيرا من أمره رغم كل شيء، ورغم إعجابي المتزايد بكل ما يقول وبشخصه، فهو لا يهتم ولا يتفكر بأي شيء غير العلوم التي تشغله، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي، هل هو رجل مسلم حقا، أو يتبع ديانة سرية أخرى قد أكون لا أعرفها؟. فكرت كثيرا في أن أفارقه وأبتعد عنه، وأتناسى كل ما سمعته منه، لكنني كنت كفراشة تسعى لضوء النار، رغم أنها ربما تلتسع باللهيب،فعلمه وحكمته كانا بالنسبة لي كالنار المضيئة الحارقة التي لا أستطيع الابتعاد عنها مهما تكن النتائج الناجمة عن ذلك.

كنت أفكر خلال ذلك كله أيضا في ديرنا بمريوط والإخوة الرهبان، وتساءلت عن قولهم بي، إذا ما حكيت لهم عن ابن وحشية النبطي، وآرائه وكل ما يسعى إليه.

الحق أقول.. لقد بات ضميري يؤرقني كثيرا، كلما اقتربت من ابن وحشية، فكلما حدثني عن كتبه التي وضعها مثل كتابه شمس الشموس وقمر الأقمار في كشف رموز الهرامسة وما لهم من الخفايا والأسرار، أو كتابه يالينارس الحكيم، وغيرها من الكتب.. كلما حدثني عن ذلك، كنت أشعر بأنني آثم والخطيئة تملكتني، إذ أنني طلبت من انوخ واخيه حارس بربة منف أن يحرقا ما لديهما من لفائف وأوراق مكتوبة بالأقلام القديمة، إذ عددتها كتابات وثنية محرمة وممنوعة، وتستوجب قطع من توجد معه من نعمة الكنيسة، وها أنا أظن الآن، أنه ربما كان بها كتابات نافعة للناس، يجب الحفاظ عليها، فربما هناك من يستخرج منها ما يعين على معرفة الكون وأصل الحياة التي نحياها، وربما لو كنت نسختها جميعها لكان استفاد منها ابن وحشية نفسه الآن، لكن ها هي وبسببي، ضاعت ودثرت إلى أبد الآبدين، وفنيت مثلما فُني واضعوها الذين قد يكونون قد أضاعوا حيواتهم حتى يتوصلوا إلى ما فيها من حكمة ومعرفة.

كنت جالسا إلى جانبه ذات ليلة وهو يحكي لي عن كتاب له يسمى «في صور درج الفلك وما تدل عليه من أحوال المولودين»، فقال إن أصل هذا الكتاب لحكيم بابلي يدعى تنكلوشا الفوقاني، فلما نطق بذلك لفّني صمت وكدت أتجمد في مكاني، فلما لاحظ هو ذلك، سألني عما صار

بي، فلم أرد وبقيت صامتا، لكنه ألح في جزع، وقد ظن أن علة داهمتني، وألجمتني، فأضطررت لأن أقول:

- سأتكلم أيها السيد الحكيم، ولكن أرجو أن تغفر لي ما فعلته وتدعو ربك أن يعفو عني.

انتبه مهتما وأمسك يدي بقوة وكأنه يهجس بسبب ما أنا عليه من حال

قلت وقد أخذني اضطراب:

- يبدو يا سيدي أنني تعرفت على هذا الكتاب بمنف، فقد قرأت في لفيفة من لفائف البردي كلاما بالمعنى الذي قلته مكتوبا بالقبطية الأولى، وهو منسوب لحكيم ربما كان اسمه هو الاسم الذي نطقت به.

تهلل وجهه بالفرح وقال:

- وهل نسخته؟ هل هو معك الآن؟ أرجو أن تطلعني عليه بسرعة؟

زاد اضطرابي، وشعرت بعرق غزير يتفجر من مسام جسدي بينما أقول:

- قلت لك فليسامحني الرب، إذ أمرت التوأمين أن يحرقاها مع بقية ما وجد لديهم من لفائف وثنية خطيرة مليئة بالتجديف، ولا طائل منها لكل من يبتغي الديانة المستقيمة.

ترك ابن وحشية يدي تسقط في حجري، وجلس إلى جانبي دون أن ينطق بكلمة، فلما طال سكونه رجوته هامسا:

- بالله عليك، قل لي شيئا أيها الرجل الحكيم. سامحني وأدعو ربك أن يرحمني.

رد بصوت مكلوم:

- مسكين ابن الإنسان، كلما اجتهد وبنى وشيد من علم ومعرفة تسلطت عليه الشياطين لينهدم ويندرس كل ما فعله، إنه كالمسكين سيزيف اليوناني مثلما حكوا عنه في كتبهم، فهو يدفع الصخرة كل يوم من مطلع الشمس حتى مغيبها إلى أعلى قمة الجبل، لكنها تسقط منه قبل أن تستقر على تلك القمة، فيظل يعيد الكرة مرة تلو مرة على مدى وجوده في هذا العالم، إن العلوم التي يتوصل إليها تسقط إلى مبتدئها الأول، وتعود إلى الصفر كصخرة الرجل سيزيف، بسبب أن هناك ما يقطع استمرارها وتواصلها مثلك.

تنهد وزفر طويلا قبل أن يتابع:

- مسكين حقا ابن الإنسان، فهو كلما تطلع إلى نور المعرفة يداهمه الظلام من جديد، لهذا تمرض أرواح البشر قبل جسومهم، وتضيع نفوسهم

في أوهام الظلمات هذه، التي تأبى ألا تغادر عالمنا هذا، بل هي تختبئ وتعشش في عقول البشر.

كدت أبكي تأثرا بما قال، وإن أكن لم أفتهمه جميعه، لكن تأثري في الحقيقة ،كان أكثر بسبب أن الرجل بدا لي في هذى اللحظات تعيسا محبطا، مهزوما وكأنه عائد من حرب خاضها بمفرده ضد جيش عرمرم جبار.

حاول أن يخفف مما أعانيه ويتلطف بي فقال:

- لست الأول ولا الأخير أيها الراهب الطيب، فكم من علوم ومعارف فنيت وضاعت بسبب أفعال كثيرة ربما كانت أقلها فعلتك، وربما سيستمر هذا في كل الأزمان وحتى آخر الزمان، ليوجد بها من يفعل ما فعل في زمان مضى. ليت هذه اللفائف الثمينة كانت قد وقعت في يدي، لأضعها بموضع بؤبؤ العين، وليتني كنت معك حين وجدتها لأمنعك من إلحاق أي أذى بها.

وصلنا في النهاية، وبعد طول المسير في النهر إلى دندرة. كان الفجر قد بزغ لتوه، فبدت لي البلدة وقد نزلنا إلى الشاطئ، أشبه بقرية صغيرة خابية، تشبه كل القرى والبلدات الصغيرة التي مررنا بها، ولكن، وبمجرد أن طير قرص الشمس بأشعته الدافئة ضباب الصباح المتراكم في المكان،

استبان لنا مبنا فخما ضخما مهيبا على البعد، لم يكن من الممكن أن يكون وبالتخمين إلا بربة دندرة العجيبة.

نفحت النوتي أجرته وكذلك فعل ابن وحشية، وشكرناه لإيصالنا إلى هذا الموضع سالمين ومضينا إلى حيث البربة غايتنا، بينما كان المسافرون حولنا يتفرقون، كل إلى حال سبيله.

كانت البربة تبعد قليلا عن بيوت البلدة الطينية المحاطة بالمزروعات وأشجار النخيل، وبينما كنا نسير، كان ثمة أمر غامض يجعل دقات قلبي تتسارع كلما اقتربنا منها.

أشار ابن وحشية بيده تجاهها وقال:

- يا له من عبقري جبار ذلك الذي شادها على هذا النحو، أتعلم، لم أر بربة مكتملة البناء، صحيحة إلى هذا الحد كهذه البربة من بين كل البرابي التي رأيتها هنا في مصر. من الواضح أن أيدي الهدم والتخريب لم تصلها بعد.

- لم أكن قد علمت أن الرجل قد زار برابي عديدة قبل ذلك فقلت:

- إذن.. أنت مكثت في مصر طويلا، وطوفت بها كثيرا.

ابتسم الرجل ورد:

- مر على هبوطي أرض مصر ما يقارب العام، ذهبت أولا إلى المدينة العظمى التي هي الإسكندرية، بحثا فيها عما يفيدني، لكني لم أعثر على شيء، فقد قيل لي أن كل ما كان بها من كتب وعلم ضاعت منذ زمن طويل بسبب الصراعات والتعصب والكراهية التي كانت تتفشى بين الناس في كثير من الأحيان، وقد قيل لي إن بعضا مما كان بها، قد هُرب وأخذ إلى أهناسيا بسبب وصم أهل المسيح لهذه الكتب بالوثنية والكفر، لكن افتهمت أيضا أن هذه الكتب سافرت في زمن تالٍ إلى جندنسابور، لا أعرف مدى الحقيقة في ذلك. على أي حال، لقد ذهبت إلى برابي كثيرة في أسفل الأرض، لكن معظمها تهدم على مر الأزمان، فهذه المعابد القديمة، تصبح عديمة الجدوى والنفع، مادام لا يوجد من يتعبد بها.

لم أسمع عن كل ذلك من قبل ولم أكن أعرف عنه فأبديت دهشتي أكثر بسبب ترحاله ومكوثه بمصر كل هذا الوقت، لكن وبينما كنت ألاحظ ذلك وأقوله: تنهد وقال:

- إن كل من يبحث عن العلم والحقيقة، لابد أن يأتي إلى مصر، لقد تم ذلك عبر الزمان ومنذ الزمن العتيق، كل الفلاسفة المرموقين يا

عزيزي، كانوا يحجون إلى عين شمس ومنف ليتشربوا من علمائها وحكمائها. فيثاغورث عاش بها مدة اثنين وعشرين عاما، وأفلاطون تسعة عشر عاما، وكذا أرسطو وغيرهم كثيرون، حتى الأنبياء جاءوا اليها، إبراهيم ويعقوب ويوسف ومخلصكم عيسى بن مريم. لقد هبط الجميع إلى مصر، وها أنا أهبط إليها بعد كل هذى الدهور باحثا عن العلم والمعرفة فيها.

ابتسم وهو يقول ذلك، فقلت:

- ترى هل سنجد فيها ما يعيننا على ما نبتغيه؟

قال وهو يسرع الخطى، وكأنه متلهف على دخولها:

- إن ما أتمناه هو أن أجد بها من يقرأ الأقلام العتيقة المصورة على جدرانها، فأنا مهموم بوضع مؤلف يتعلق بالأقلام القديمة كلها، إن جل تفكيري وحماسي الآن مصوب باتجاه هذا الكتاب، فأنا مشغول يا عزيزي بالأقلام العتيقة كلها، وأفنيت عمرا من عمري في دراستها وفحصها وسبر أغوارها، لأن بها مفاتيح كل معرفة قد تكون ضاعت واندثرت، لذا فلسوف أسمي كتابي هذا بمشيئة الرب «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام». ولعل كل راغب بعلم

أو معرفة قديمة ينتفع به، ويستعين بها يكون فيه لأجل خير الناس أجمعين.

عندما وصلنا البربة، وجدنا على بابها رجلين، تدل هيئتهما وملابسهما على انهما من أسافل الناس، فلما عاينانا وافتهما الغرض من حضورنا للمكان قالا:

- سنأذن لكما بالدخول لمقابلة الرئيس الكبير فيها.

رحت أجول ببصري في المكان، كانت الرسومات والتصاوير تغطي كل حجر فيه، سواء صغر أو كبر. كان بهاءً آسرا يفيض على كل ما يقع نظري عليه. داخلني شعور طاغ بالرهبة والجلال، وتملكتني حالة من الخشوع، وكأنني داخل بيعة من بيع الرب، أطالع فيها قون القديسين والشهداء، صلبت وأنا أتمتم:

- قدوس، قدوس، قدوس رب الصباؤوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس. ثم إنني شعرت بحالة من الورع. ورع غريب، حتى أنني قلت لروحي متسائلا: هل هذه يا ترى فتنة شيطان؟. لكزني ابن وحشية لكزة خفيفة بذراعه، حيث كان يقف إلى جانبي، بينما أنا مستغرق فيما أنا فيه مع نفسي، ثم إنه أشار إلى السقف، وبدأ يتلو كلاما بلغة غريبة لم أفهمها.

ملت برأسي إلى الخلف قدر استطاعتي، متطلعا إلى السقف العالي الممتد، بينما تهدج صوته بالفرح وبدا كمن وجد لقية ثمينة وهو يقول:

- يا الله، إنها الزودياك يا عزيزي.

كان السقف تتوسطه منحوتة دائرية واسعة، تستبين منها جملة من التصاوير على هيئات بشرية، وقد رفعت أذرعها إلى أعلى. بعضها منتصب على قدميه، والآخر في وضع الركوع، وكانت ثمة نقوشات كثيرة حول كل ذلك الملون بألوان بديعة، وقد تكامل ذلك كله في أنساق محسوبة وترتيبات موضوعة، على نحو بالغ الروعة والجمال.

قال ابن وحشية كمن يحادث نفسه دون أن يحيد ببصره عن ذلك السقف العالي، والذي شعرت تحته ونحن واقفين وكأننا صرنا من الأقزام.

- هذه قبة السماء ببروجها الاثنى عشر الدائرة فيها هذه التصاوير يا عزيزي. إن هذى التصاوير ما هي إلا صور البروج ورموزها. إنها أساس التنجيم والنيريجات. ها هو الحمل والثور والتوأمان، والسرطان والأسد والعذراء والميزان والعقرب، وحامل القوس والجدي والدلو والحوت، وها هي النجوم والكواكب تحيط بها الديكانات الستة والثلاثون ويحمل كل منها اسم النجم الذي يتجول خلالها.

راح يتمتم فجأة:

- آه يا هرمس.. يا مثلث العظمات، يا عالم الأسرار. ها هو تقويمك المقدس الذي ابتدعته يطل علينا رغم مرور الدهور، يا من ابتدعت الكواكب الخمسة التي لا تستريح. خدام الشمس الذين يدورون حولها، يا عطارد، ويا زهرة الذي أنت كوكب الصباح والمساء؟. يا مريخ. يا مشترى أيها المتلألئ دوما. ويا زحل يا ثور السماء.

بدا لي ابن وحشية وهو يقول ذلك، وكأنه واحد من أولئك الذين يعتقدون في الأناجيل المحرمة والتي تسمى الأبوكريفا، فقد جاء بتلك الكتب الهرطوقية تجديف وتخليط مثلما عرفت في ديرنا العامر بمريوط، وها هو ينطق بما يتشابه بكلام تلك الكتب.

دون ان أدري التفت إليه وقلت حانقا:

- هل أنت مسلم حقا أيها السيد؟. إن كلماتك لم أسمع بمثلها من أي مسلم صادفته قط. هل هذا مدون بكتاب الإسلام الكريم؟. أنا لا أظن هذا.

رد الرجل، بينما بصره مازال مثبتا باتجاه السقف:

- اسمي أبو بكر أحمد بن علي.

كدت أن أقول له: لكنك تقول ما يقول به الهرمسيون، إلا أن صوتا قادما من أعلى الدرج العالي الهابط من طرف فناء البربة الفسيح جاءنا يقول بقبطية صعيدية:

- مرحبا أيها الكريمان، بأي شيء أخدمكما الآن.

وبدأ الرجل في نزول الدرج، حتى أصبح قبالتنا حيث كنا واقفيْن. كنت لم أتبينه جيدا، بينما كان في العلو، أما الآن، وقد رأيته بوضوح أمامي، فقد أدركت كم هو عجوز مغضن، قد جمع بياض شعره في ضفيرة تتدلى إلى ما بين كتفيه، وكان رداؤه الطويل المكتسي به لا يفرق كثيرا عن أردية الكهنوت، اللهم إلا من حيث لونه الأبيض الشاهق.

رد ابن وحشية تحيته بقبطية مماثلة وقال:

- لقد جئنا مسالمين لا نبغى إلا الخير، طالبين عون أهل هذا المكان المبارك. إن صاحبي هذا، وكما هو واضح، رجل دين ومطبب، جاء من أسفل الأرض التي تفشى بها الوباء الذي لم تنفع معه ولم تعرف له علاجات شافية، وهو يفتش منذ فترة عن راد ورادع له، لأنه وكما يقول قد فتك بآلاف الناس، جلهم من الرضع والأطفال، وقبل أن

يجيء إلى هنا جاب برابي عدة، علّه يجد بها قراطيس أو لفائف قديمة تعينه على ما هو راغب فيه، وها هو يلتمس ذلك الأمر هنا في دندرة.

أما أنا فأبو بكر أحمد بن علي ويطلق عليّ ابن وحشية، ولقد أمضيت في ديازكم هذى زمنا بعد أن قدمت من أرض الرافدين، وأنا أجوب في مصر منذ ذلك الحين مفتشا على ما يعينني على تآليفي، فأنا مهموم يا سيدي بالعلم والمعارف القديمة وبغيتي هي أن أمكث هنا حينا إذا وجدت من يعلمني اللسان المنعدم القديم، ويفك لي أسرار تصاويره، ويدلني على أقلام الكهانة القديمة وما بها من ترميز وتأويل.

فاجأني العجوز إذ رسم علامة الصليب وهو يتأمل سحنتي وملابسي ويسأل:

- من أي دير في أسفل الأرض أتيت أيها الشاب؟

- مريوط. دير مريوط يا سيدي.

- آه، أولستم أنتم الذين هدمتهم المعابد في الماضي، وطردتم الكهان؟. ألستم أنتم الذين حطمتم تماثيل الآلهة القديمة، وقتلتم العلماء في الإسكندرية؟ انظروا ما الذي يفعله الإسماعيليون اليوم في بيعكم وديوراتكم. كما تدين، تدان.

فاجأني الرجل بكلماته، فأرتبكت قليلا قبل أن أرد:

- أنت تعلم أيها الشيخ الطيب، كم تعذب أهل يسوع وتألموا من الوثنيين، أنت تعلم ما الذي أصاب أهل الصليب من بلاء على يد الكارهين لاسم الرب، أنت أيها الشيخ الجليل ماكان لك أن تسأل هذا السؤال فأنت ولا شك أعلم مني بإجابته، وتعلم كذلك أن المسلمين العرب الذين هم سادة البلاد الآن، لم يفعلوا ما فعله الروم في ماضي الزمان مع ملتنا. لقد جبوا الخراج وفرضوا علينا الجزية، وسام بعض حكامهم أهلنا العذاب، ولكن دينهم لا يحض على كراهيتنا ولا قتلنا ولا تعذيبنا، ونبيهم كان قد تزوج واحدة منا، وظلت حتى مماتها على دين المسيح. نعم هناك ديورات وبيع تهدمت، ولكن الذين هدموها هم العوام الذين دخلوا الإسلام وحولوها إلى مساجد لصلاتهم.

لا أعرف هل آمن بما قلت أم لا، إذ راح يمسد لحيته الكتانية بأصابعه وهو يفكر قبل أن يرد:

- على أي حال، هذا موضوع يطول شرحه، يمكن أن نتحدث فيه فيما بعد.

ثم إنه التفت إلى أبن وحشية وسأله:

- وهل لك أن تخبرنا ببعض تصانيفك وتآليفك أيها المبجل؟

- لي مؤلفات وتصانيف كثيرة، وأنا أصولي من النبط الكلدان، ولدت في بلدة قسين من نواحي كوفة العراق، ويصنفني البعض زورا بأنني ساحر مشتغل بالسحر، ولكني يا سيدي لا أجد في الطلسمات والسحر، إلا جانبا من العلوم القديمة التي ابتدعها الأولون وفقا لأصول وقواعد معلومة، لكن هناك منهم من حجبها عن الناس، واستأثر بها لنفسه حتى يبزهم ويتفوق عليهم، ويكون هو صاحب المعرفة دون غيره، وهكذا ضاع معظم هذا العلم، وانحطت المعرفة، وما بقي من كل ذلك يظن كثير من الناس أنه مجرد شعبذات.

واصل ابن وحشية حديثه:

- ثم أني مهتم بالصنعة الشريفة، واهتم بطرائق الفلاحة والزرع عند الأقدمين، ولي شأن بأسرار النجوم والفلك، ولي إلمام بالأحجار والجواهر، وأبغى معرفة الألسنة القديمة، ما ضاع منها وما بقي، وترجمت عن لسان أجدادي، وترجمت مصنفا عن الفلاحة النبطية وهو بلسان أهل بابل الأقدمين، وزدت عليه من عندي، ثم إن كتابي

الذي سميته الأدوار جاء على مذهب النبط وهو تسع مقالات منقولة عن اللسان النبطي، ثم أني ترجمت وكتبت عن (ذاواناي) وهو اسم هرمس الثاني البابلي، ولسوف أطلعك على بعض منها إذا أردت أيها الشيخ الفاضل.

لكني الآن متشوق لمعرفة لسانكم العتيق ومغزى تصاويره المدونة هنا، إذ أنني مشغول بتصنيف عن الألسنة القديمة وأقلامها، ما باد منها وما ساد، وأي أقلام منها كانت للتعمية مثلما كان يفعل عادة الحكماء والفلاسفة وذوي الصنعة والعلوم الخفية، ليرموزا علومهم لتحفظ في جب أسرارهم العميق وتحرز بحرز متين دون أن تفسد بالتحوير والتأويل وغلاسة التفسير.

بقينا ساعة في بهو ذلك المعبد الوثني القديم، نتحاور مع الشيخ الرئيس هذا، هو يسأل ونحن نجيب، وقد عرفت من ابن وحشية بعد ذلك، وهو الرجل العليم، أن هذه الطريقة كانت متبعة في سائر معابد مصر القديمة، والتي كان بها مواضع الحكمة وأسرار العلوم، فلا يقبل دارس بها، ولا يطلع على أسرارها، إلا كل عارف عليم يرغب في الاستزادة من كل علم ومعرفة طالبا من الرب أن يزيده علما، وقد أفادني ابن وحشية أن حكماء تلك المعابد ومعلميها سألوا فيثاغورث وأرسطو وأفلاطون وغيرهم

من حكماء اليونان أسئلة عسيرة، عندما جاء هؤلاء طالبين العلم والمعرفة منهم لأن سدنة المعرفة هؤلاء بمصر كانوا يرون أن اليونانيين أطفال في المعرفة بالنسبة لهم، فلا يقبل دارس منهم، ولا يطلع على أسرار الحكمة المصرية وأسرار علومها إلا كل عارف عليم، تتشوق روحه وتهيم بكل معرفة عميقة، وبذلك الذي لا يُشبع منه الإنسان أبدا، مهما استزاد وهو العلم ويجعله يدعو دوما: رب زدني علما.

بعد وقت، وافق الرئيس على قبولنا وبقائنا بالمكان، وقال إنه سيوفر لنا بقعة فيه لنبيت ونستريح، لكننا لن نغادره الا بإذن منه، وعلى شريطة أن أنسخ ما حصلت عليه من قراطيس في منف، وأقدمه له، مقابل إطلاعي على ما لديه من قراطيس، أما ابن وحشية فقد سأله كشرط لتعليمه القلم المصور القديم، والأقلام العتيقة الملغزة، أن يهب ذلك المكان بعضا من تصانيفه ولا يشتغل بالسحر خلال إقامته لأنه وكما قال ذلك الشيخ صاحب الوهرة والتأثير «لدينا من يشتغلون به، ويعرفون فيه أكثر منك».

بعد أسبوع من بقائي في معبد دندرة، تيقنت أنه ليس معبدا للوثنية القديمة كما تصورت، لكنه وكما عرفت، كان ملاذا ككثير من معابد مصر العليا، لعشرات من المؤمنين المسيحيين في أزمنة اضطهاد أباطرة

الروم لهم ومنذ زمن الشهداء المبجلين عند تحكم الإمبراطور الوثني دقليديانوس، صحيح أن الآلهة القديمة كانت مازالت تعبد بهذا المكان، لكن المؤمنين الفارين من التعذيب والاضطهاد، عندما حكوا لكهان المعابد، ومنهم كهان هذا المعبد عن فظاعة أفعال الروم معهم، رحبوا بهم، وأخفوهم داخل سراديب المكان السرية، وقد ظل هذا المعبد مأمونا أكثر من غيره من المعابد الأخرى، بسبب بعده كثيرا عن المدينة العظمى التي هي الإسكندرية الواقعة في نهاية أسفل الأرض عند بحر الروم.

وقد ظل هؤلاء الأتقياء من المؤمنين الأوائل داخل المعبد مع أنسالهم حتى كان وقت رفع غمة الاضطهاد والعفو عن أتباع يسوع، وقد خرج كثير منهم بعد ذلك ليعيشوا في بلدة دندرة التي لا تبعد كثيرا عن المعبد، وبقي آخرون فيه وقد أخذتهم شطحة العلم، وهيمن عليهم شوق المعرفة، فأبوا أن يغادروه. لكن عندما قويت المسيحية واشتد عودها، قام أتباع يسوع من الرهبان والقساوسة برد الصاع صاعين للوثنيين الروم، فحطموا الأوثان، وهدموا كل معابد الوثنية في الإسكندرية وغيرها من المعابد التي كانت تعبد العجل المسمى أبيس، وعند ذاك، فر العديد من العلماء وأهل الحكمة الوثنيين، بقراطيسهم ولفائفهم التي تبقت من كل ذلك الهدم والدمار إلى مصر العليا وبلداتها، وظلوا متخفين في أهناسيا وغيرها من هذه البلدات، وبعضهم جاء إلى دندرة، وظل هؤلاء الحكماء

الوثنيون متخفين عن الأعين والأنظار حتى وقت الاحتلال الفارسي القريب، وقبل سيادة العرب المسلمين على البلاد بسنوات قليلة، لم تزد عن العقدين لكنه ظهر من وشى بهم، فهاجمهم الفرس، وأخذوهم مقتادين إلى بلادهم، وقد قيل إن بعضهم فر إلى مدينة جندنيسابور التي كان العرب المسلمون قد أخذوها من الفرس، فعاشوا بها آمنين، كما أن جماعة أخرى منهم جاءت إلى دندرة ملتجئة، مستليذة بمعبدها، وما رئيس هذا المعبد إلا حفيد لواحد من هؤلاء، وقد تشرب من جده العلم والمعرفة، لكنه حافظ عليها وصانها رغم إيمانه بالمسيح وسعيه إلى الديانة المستقيمة، وقد حافظ على كل ما تبقى من ذلك الزمان من قراطيس ولفائف العلم والحكمة القديمة المتراكمة عبر آلاف السنين.

والحق أقول، إنه لم يكن مسموحا لي، ومنذ بداية وجودي بهذا المكان في معرفة كل هذا، لكني عرفته من ذلك الذي وثق بي ووثقت به، ولن أقول أو أشي باسمه أبدا حتى نهاية أيامي في هذا العالم، فذلك سر لا يجوز أن يباح.

وحتى لو وشيت به، فلن يُعرف أبدا لأن جميع من يحيون هنا لديهم أسماء غير تلك التي سُموا بها وقت ولادتهم فالذي يبقى هنا ليعرف ويتعلم عليه أن يعيش كالعائش في الدير تقريبا، إذ تطبق عليه شروط وقواعد

صارمة، وحتى ذلك يطبق على الذين يبقون بالمعبد لبعض الوقت ثم يغادرون، ولما كنت من أهل الديورة ومعتادا على الحياة الخشنة المستقيمة، وجدت أن حياتي بهذا المكان لا تختلف عن حياتي كثيرا في دير مريوط، لذا فقد قوبلت طوال الوقت في هذا المكان، بكل تقدير واحترام، لأنني التزمت كل أمر وسنة أستنت به.

بقيت منصرفا إلى عملي في القراءة والنسخ، أواصل الليل بالنهار منكبا عليه، لا أتركه، إلا للتطهر والاغتسال والصلاة، أو لتناول لقيمات تقيم أودي، بينما كان ابن وحشية منقطعا إلى علمه وعمله، وقد تناوب على تعليمه الشيخ الرئيس، وحكيم آخر كان لا ينطق إلا اللسان القبطي واللسان المصور العتيق ولا يعرف لسان العرب قط.

ذات صباح وعندما انتهيت من نسخ قراطيسهم بالمعبد والمتعلقة بالطبابة والحكمة، وكنت قبلها قد نسخت القراطيس التي جلبتها من منف، ذهبت إلى الشيخ الرئيس في موضعه وقلت:

- لقد انتهيت من عملي يا سيدي، على وجه أبتغي به مرضاة الرب، فهل تأذن لي بالرحيل؟ لقد غبت طويلا عن ديري الحبيب، وأنا في شوق الآن لأن أعود إلى إخوتي هناك لأطلعهم على علاجات الوباء، كما أني سأقوم بنصح كل من أقابله بالبلدان والقرى التي سوف

أعبرها بطريقي، وسأعطيهم العلاجات التي عرفتها هنا، وأرجو أن تكون شافية لهم بمشيئة الرب.

هز العجوز رأسه، وفكر قليلا قبل أن يقول:

- غدا، وقت الصباح سوف يكون جوابي على ذلك.

* * *

في صبيحة اليوم التالي، كنت قد تهيأت للمغادرة،فجمعت قراطيسي المنسوخة، وأشيائي القليلة التي لازمتني منذ ارتحالي من قربيط. تحسست صدري لأتأكد أن صليبي في موضعه، ونظرت صندوق طبابتي وما يحتويه من كل المراهم والحبوب المصحونة والأعشاب وغيرها مما أداوي به الناس، وكنت خلال ذلك كله مدركا أن الشيخ الرئيس لن يكون لديه من أسباب قد تعوقني عن الرحيل، فلقد كنت وكما قلت حريصا على فعل كل ما يلتزم به في هذا المكان من سلوك سوي مستقيم، وكتمان أسراره عن أي كائن كان.

وبينما أنا أعبر واحدا من دهاليز المعبد، سائرا لملاقاة رئيس الدير رأيت ابن وحشية واقفا قبالة حائط من الحوائط العالية يتمتم بصوت متقطع خفيض، وقد تطلع إلى ماصور ونقش على الحائط، وقد بدا كطفل يتعلم الكتابة والقراءة في سنينه الأولى.

توقفت في مكاني لأسمع ما يقول دون أن يراني، وإذ به أسمعه ينطق:

- السلام عليك من قبل ساعات الليل التي تضيء من يعظمها فالأولى هي ساعة المساء، والأخيرة هي ساعة الفجر التي ..

لم أتمالك نفسي، فتقدمت نحوه وقاطعته هامسا، إذ كان الكلام داخل المعبد لا يكون إلا للضرورة، ولا يصح إلا بصوت خفيض.

- ابن وحشية.. أيها العزيز، أنت بت تعرف اللسان المصور العتيق.. يا للمفاجأة.

لم أكن قد تحدثت إلى ذلك الرجل العزيز منذ افتراقنا داخل المعبد، إذ مضى كل منا إلى شأنه وفقا لما هو معمول به هنا، كنت ألمحه أحيانا عابرا في أثناء مروري بالموضع الذي يشتغل فيه، فأحييه سريعا بإيماءة من الرأس، لذلك وبمجرد أن سمعنى أناديه وأقول له ما قلت، توقف، ثم احتضنني وقال:

- يا الله، هذا أنت يا عزيزي آمونيوس، لقد اشتقت إليك كثيرا. أجل أنا أجيد قراءة وكتابة القلم القديم المصور الآن. حمدا لله على هذه النعمة الجليلة، إذ كنت قبلها وكأنني أعمى البصر و البصيرة، فمن خلالها افتهمت أشياء كثيرة كانت قد غمضت على فهمي وإدراكي لكثير من المسائل والأمور.

- لا أعرف - وليغفر لي الرب - لماذا شعرت بغيرة تأكل قلبي مما قال، ولماذا بت أمامه وقد اعتراني نقص يتوجب الخجل منه.

دون أن أدري سحبته من يده بهدوء وسرت حتى بت تحت السقف الفسيح المصور وأشرت إليه وأنا أقول له هامسا وكانني أختبره اختبارا أتمنى أن يفشل فيه:

- هل تستطيع قراءة وفهم هذا الآن؟ هل تستطيع أن تترجم لي معنى كل هذه الصور من البشر والحيوانات؟. أنا أريد أن أعرف وأفهم معنى ومغزى كل هذا.

لم ينتبه ابن وحشية لحقيقة مشاعري تجاهه خلال هذى اللحظات إذ تطلع إلى السقف وبدا يقرأ ويقول لي شارحا مفسرا:

- النساء الأربع الواقفات على أطراف هذه الدائرة جعلن للدلالة على الشرق و الغرب والجنوب والشمال، وهن يحملن السماء، ويساعدهن في ذلك ثمانية من صور الإله القديم جدا حور، ورءوس هذه الصور، وكما ترى على هيئة طائر الباشق وهذه الدائرة الراكزة على أيدي هذه المعبودات القديمة الواقفات إضافة إلى ثمان أخرى راكعات، تنقسم إلى ستة وثلاثين قسما، كل قسم منها إلى عشرة أقسام.

- وهؤلاء الذين بالداخل من صور لمغلولي الأيدي، هي ثمانية نجوم، وما فوق هؤلاء إنما هي أبراج، وثمة كواكب هناك رسمت على هيئة رجال، وهذه الدائرة مبتدأه في وسطها ببرج الأسد وهو ذلك السبع الذي تراه يسير فوق الثعبان وفي خلفه امرأة، ثم هناك برج السنبلة وهو على شكل امراة في يدها اليسرى ساق، ثم برج الميزان بكفتيه ثم برج العقرب، فبرج القوس المرسوم على شكل ثور نصفه إنسان ونصفه ثور مجنح، ثم يلي ذلك الجدى نصفه ماعز ونصفه الآخر سمك، ثم الدلو وهو على شكل رجل يرش بالماء من إناء بيده، ثم يليه الحوت وهو عبارة عن أسماك مجتمعة في مثلث وكما ترى، ثم الحمل. ثم الثور، ويليها السرطان فهذه هي الاثنا عشر برجا المشتملة عليها الدائرة.

همست وأنا أزدرد ريقي، وأصلب بيدي:

- أي الزودياك، الزودياك اليونانية المتعلقة بالوقت وبروجه.

همس قائلا بدوره:

- أظن أن اليونانيين أخذوها من هنا، ضمن ما أخذوا من علوم كثيرة من المصريين القدامى، إنها من قال فيها بعضهم بلسان العرب:

حمل الثور جوزة السرطان

ورعي الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس

نزح الدلو بركة الحيتان

إن اللسان القديم يا عزيزي يسمى هذه النجوم خِبس أي المصابيح وهي موافقة لما جاء في القرآن الكريم، «وزينا السماء الدنيا بمصابيح»، وكانوا يجعلون أول هذه النجوم مجرد نجوم بسيطة، أو عدة نجوم بينها وبين الست والثلاثين أو السبع والثلاثين جمعة، التي تتألف منها سنتهم القديمة كانت مناسبات تعقد لها، وقد أطلقوا بلسانهم على النجوم أسماء، فكانت سُيت للشعرى اليمانية وحُربنت للمشترى وحَركاحر لزحل وحُرتشر لكوكب المريخ.

بدا لي ابن وحشية أنه عرف الكثير من خلال إقامته بهذا المعبد القديم، والحق أقول إن حسرة داخلتني بسبب ذلك، إذ بدا الأمر لي وكأننا تلميذان صغيران نتعلم في مكتب من مكاتب التعليم، فتفوق أحدهما على الآخر، رغبت أن أسأله عن كل الذي تعلمه هنا، وإلى أي وقت

سوف يبقى بالمكان، لكني لم أستطع، لأنه غير مسموح بالحديث عن ذلك، فاكتفيت بأن أقول له:

- سوف أغادر سريعا، فقد انتهيت من النسخ تماما ولم يعد لي عمل هنا.

بدا ابن وحشية متأسفا على رحيلي، وبدا لي وكأنه يرغب في قول شيء عن وجودي هنا، لكنه أحجم عن ذلك واكتفى بقوله:

- لسوف أفتقدك أيها الراهب الموقر، ولن أنسى الوقت الذي تلازمنا فيه خلال رحلتنا إلى هنا.

كانت هذه المرة الأولى التي ينعتني فيها ابن وحشية بالراهب عندما يحادثني، لذلك، فقد تأثرت بما قال كثيرا وسألته:

- إذا عدت يوما إلى الإسكندرية، فأتمنى أن تعرج على ديرنا بمريوط لأراك، فأنا لن أنساك ما حييت.

ثم إنني حييته، ومضى كلا منا في طريقه.

قطعت الساحة الممتدة للمعبد حتى أصل إلى موضع الشيخ الرئيس فيأذن لي بالمغادرة، لكني وفي أثناء سيري، كنت وكما يقال، أقدم رجلا

وأؤخر الثانية، وفجأة وجدتني أقف بالمكان، وأسأل نفسي بجد، وعلى نحو من المواجهة الصريحة لم أعهدها مع روحي من قبل: هل أنا راغب في مغادرة هذا المكان حقا؟

لقد جئت بداية لأجل البحث عن علاجات ناجعة لهذا المرض اللعين والذي هو الجدري، ولكن ها أنا أكتشف هنا، أن هناك أمورا أهم من هذين فها هنا علم ومعرفة قديمة مختزنة، وها هنا موضع إذا اندثر وفنى فقد يصعب علينا بعد ذلك أن نتعرف على كنوز الماضي السحيق من علوم وحكمة ومعارف.

لكن الدير؟. إخوتك في الدير يا آمونيوس، والناس الذين يتعذبون ويفنون بالوباء، هل تتركهم وتبقى هنا؟

كان صوت آخر بداخلي يسائلني بمثل هذه الكلمات، ويجعلني حائرا مضطربا، لا أستطيع أن أقر قراري، أو أعرف ما الذي أنتوي عليه.

فجأة، وجدت طائرا من طيور اليمام يرفرف بجناحيه عند السقف قرب نهاية الساحة، متوجها إلى عش بناه في زاوية السقف، رحت أتأمله، بينما هاتف هتف بداخلي:

- إنها الإشارات.. الإشارات أيها المسكين آمونيوس.

تمتمت لنفسي بصوت سمعته:

- الإشارات؟. إنها الإشارات يا آمونيوس.

وخلال تلك اللحظات التي لن أنساها ما حييت، كنت قد قررت قراري، وحسمت أمري، متوكلا على الرب الذي بيده مصيري وقدري.

ثم اني توجهت بخطى واثقة لمقابلة الشيخ الرئيس، إذ كنت مدركا لما سوف أقوله له على وجه التحديد، وخلال ذلك رحت أتمتم بآيات الكتاب المبارك المُعينة وأقول:

«طوبى للكاملين طريقا، السالكين في شريعة الرب. طوبى لحافظي شهاداته من كل قلوبهم يطلبونه. أيضا لا يرتكبون إثما. في طريقه يسلكون».

هذه الرواية بفضل الأفاضل

- أحمد كمال باشا
- المقريزي
- محمد رمزي
- يوحنا النيقوس
- أبو المكارم
- يوسابيوس القيساري
- سمير يحيى الجمل
- محمد عبد الحميد الحمد
- عبد الله خورشيد البري
- فاطمة مصطفى عامر
- جلال الدين السيوطي
- ابن أبي اصيبعة
- هيردوت
- الأسحاقي المنوفي

- أميلينو
- حسن جوهر
- شهاب الدين بن العماد الأقفهي
- سيد كريم
- عبد العزيز الدالي
- أولف جروهمان
- درويش الأسيوطي
- سامح محمد شوقي صالح
- برونو أليوا
- محمد علي أحمد
- بهاء الدين إبراهيم محمود
- سيدة كاشف
- سومرز كلارك
- ذبيدة عطا
- نريمان عبد الكريم أحمد
- وآخرين دام فضلهم



هذه الرواية

تحكي رواية شوق المستهام، على واقعة زيارة الكاتب المجهول لبردية زويجا الطبية الشهيرة، لمعبد إمحوتب بمدينة منف الفرعونية، ومن خلال ملابسات تلك الزيارة، يتساءل السرد الروائي، عن أسباب القطيعة مع ماضي مصر الحضاري، والمعروف منذ سبعة آلاف سنة، ويسعى ذلك السرد من خلال رحلة بطل الرواية في الربوع المصرية، للبحث في الحلقات المفقودة، والفواصل التاريخية، المتسببة في القطيعة الثقافية بين الماضي والحاضر، وكذلك ما وراء ضياع واندثار لغات قديمة حملت إرثاً ثرياً، تراكم عبر حقول معرفية متنوعة.

وتكشف الرواية عبر فصولها الممتدة، عن تلك المحاولات المجهولة التي بذلها بعض من أبناء ذلك الوطن، للإمساك بالماضي العريق، والتشبث بإنجازات حضارية هائلة تمت فيه، لكن جُلها دُرس بفعل الاحتلالات الأجنبية المتلاحقة، وتجريف من علماء ومبدعي الحضارة فيه، مما شكل خسارات كبرى، ليس على مستوى التاريخ المصري فقط، ولكن على مستوى التاريخ الإنساني برمته.



الغلاف: أحمد اللباد

مركز الأهرام للنشر



طبع بمطابع الأهرام بقليوب

0103000000050672